

مُحَمَّدُ عَلِيُّ الْخَرْبَرْدَلِي

الإسلام والأوضاع

الاقتصادية

طبعة جديدة ومحققة

٩



العنوان: الإسلام والأوضاع الاقتصادية.

المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالى .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الثالثة أكتوبر 2005 م .

رقم الإيداع: 9260 / 2002

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-1821-1

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - الممهندسين - الجيزة
ت: 3472864-(02) 3466434 (02) فاكس: 3462576 (02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmistr.com

المطبع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330296-(02) 8330287 (02) فاكس: 8330287 (02) البريد الإلكتروني للمطبع: press@nahdetmistr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -
القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 5909827-(02) 5908895 (02) فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales @nahdetmistr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmistr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أنسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتقع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة
إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

تمهيد

سرني أن تظهر طبعة جديدة من هذا الكتاب .

ذلك أنه أول كتاب ألفته فله في النفس مكانة . . .

ثم لأنه يمثل مرحلة من كفاح الإيمان الحرفى سبيل الوصول إلى غاية أرشد . وهذا الضرب من الكفاح يجب أن يعرف ويذكر ، لماذا ؟

لأن أمتنا لم تكسب خيراً قط من عناصر الإلحاد والتحلل التي لا ينقطع لها لغو وادعاء . . .

إن هذه العناصر الشريرة استطاعت أن تذكر بالمؤمنين ، وأن تنزل بهم ضربات موجعة ، وأن تضع يدها على جهودهم المادية والأدبية لصلاح العوج وإقامة الميل . . .

ثم خرجت على الناس تدعى الإصلاح والعبقرية ، فرأينا أن ننشر الصحف المطوية لكي يعلم الناس أن رجال الإسلام لم يصمتوا . . .

ولكي يخجل الذين ورثوا جهود الآخرين من طول التبجح .

فقد تكلمنا يوم كانت الأفواه مكتملة ، ثم تقدموا يوم الطمع ، وهم الذين خسروا يوم الفزع .. ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) .

وقد كانت في هذا الكتاب لمحات وجوب إعادة النظر فيها لأننا طلاب حق وإنصاف . . وقد فعلنا ذلك في هذه الطبعة الجديدة - من وحي ضميرنا - لأننا ندور مع الحق . . . وقد فعلنا ذلك في بقية كتبنا . . . ولنا الأجر في كل الحالين إن شاء الله .

مقدمة الفزان

(١) سورة الروم من الآية ٤ .

مقدمة الطبعة الثانية

هذا كتاب ألفته سنة ست وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة (١٩٤٧م) . وقد صدرت طبعته الأولى في السنة نفسها .. وصدرت منه ست طبعات آخرها سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) .. وتوقف صدوره - عن عمد مني - منذ ذلك الوقت .. أي منذ ثلاث وعشرين سنة .

لقد ألفت هذا الكتاب إصلاحاً لاعوجاج كان قائماً .. واعتماداً على أفكار كانت مطروحة ..

وقد كان هذا الكتاب أول ما كتبت من كتب .. وقد كانت لنا - في مصر وفي الحركة الإسلامية - ظروف وجهتنا - ابتعاد وجه الله - أن نقول ما قلنا في هذا الكتاب ..

وفي هذه الظروف - ودعونا نعود إلى سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) - لم يكن في منظورنا القريب - والغريب بيد الله - أن يسير التاريخ على هذا النحو .. وأن يقضى على المسلمين - أو تبذل محاولات القضاء عليهم - بهذه الحدة والشراسة .. وفي الكفة الأخرى .. تقوم إسرائيل على أنقاض فلسطين والعرب بهذه الصورة .. وكأن الأمرين وجهان لعملة واحدة .. خنق الإسلام وتحطيم العاملين .. وتشويه كل مait إليه ، ورصد كل بذرة إسلامية على أرض المسلمين ومعاملتها بكل غلظة .. بل بغلظة لم تعرف عصور الهمجية لها مثيلاً .. وللأسف بأيد محسوبة على الإسلام .. !!

وفي الناحية الأخرى : صمت مريب .. وتواطئ سرى .. وأدب وعقل .. وكلام عال صارخ يصحبه فعل حذر مستكين .. معبني إسرائيل والصهيونية العالمية والصليبية الدولية .. وكان (الحصاد المر) تشتت العاملين للإسلام ، وبعثرة الطاقات الصادقة في الأمة .. وقيام إسرائيل قوية مرهوبة مستعملة .. !

استئساد هنا .. واستنواق هناك .. وشدة على المؤمنين .. ورحمة مع الكافرين .. وبطولة مزيفة خادعة .. رصيدها الكلام .. واستسلام ومحاولات فاشلة .. في جانب الفعل المتصل بقضايا الأمة المصيرية ..

ودخلت أمتنا مرحلة نكدة من التيه والضياع .. وضاعت فلسطين .. وأجزاء أخرى من بلاد عربية .. وضاعت أجزاء كثيرة إسلامية ، وسُكِّت - بتوطئ آثم - عن قضايا إسلامية كثيرة .. وحقوق إسلامية مهدرة ..

وفي سنة ١٩٦١م .. وبعد انكشاف الضياع المقنع بشعارات لاتحمل أدنى رصيد من الشرف والحقيقة .. بدأت مرحلة الضياع الاجتماعي والاقتصادي والفكري .. تحت راية ماسمي بالقوانين الاشتراكية .. وكان شيوعية مغلفة زاحفة !!

وظهر أن ما كنا نظنه إصلاحاً .. إنما هو داء جديد أسوأ خطراً من الداء القديم الذي
كنا نحاربه في هذا الكتاب .. وكما دخلنا المعركة في سنة ١٩٤٧ م .. ضد الإقطاع
والاستبداد .. دخلناها سنة (١٩٦١ م) ضد الأخطار الجديدة ، وأوذينا في الله ..
ونحمده على ذلك .. وأصدرنا في هذه الظروف كتابنا (معركة المصحف في العالم
الإسلامي) وتابعنا المعركة حتى أوصلت في وجوهنا كل أبواب العمل للإسلام من
خطابة وتربيبة وكتابة ..

• • •

إن تجربة العقود الثلاثة الماضية كانت - بحق - تجربة مرة .. وقد أصيّبت الأمة في هذه العقود الصعبة باللم تصب به في كثير من فترات تاريخها .. وقد ظهر فيها دجالون كثيرون .. وارتفعت فيها رايات ، وخفضت- أو توارت - رايات .. واحتلّت المفاهيم الزاحفة على حقائق ديننا ومنهج ربنا .. وكنا نغزى من الشرق ومن الغرب .. ونُحرّم من حق الدفاع عن ديننا .. وتفرض المفاهيم المنحرفة - بقوة القانون الوضعي وحماته - على جماهير الأمة المسلمة المسكينة .

وقد تبين لي - وأنا باحث أنشد الحق ولا أبتغى إلا وجه ربى - أن كثيراً من مواطئ أقدامنا تحتاج إلى تبيين .. وأن بعض الآراء والاجتهادات ربما تحتاج إلى تمحیص ، مع ظهور حقائق جديدة ، ومع ما أفادته من تجربة العقود الثلاثة الماضية .

لقد كنت- في كتابي هذا : (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) - قد استخدمت مصطلح (الدين في خدمة الشعوب) وكان لهذا الاستخدام ومازال عندي ما يبرره .. فقد كان استخدام هذا المصطلح في مواجهة ذلك المصطلح الذي روج له الشيوعيون في

الشعوب) ينبع من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) تلك الفترة (الدين أفيون الشعوب) .. واستخدامى لهذا المصطلح (الدين فى خدمة

ومن حديث رسول الله ﷺ: «أبغوني في ضعفائكم، هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟»^(٢).

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ . (٢) صحيح .. أخرجه مسلم والإمام أحمد .. برقم ٤١ صحيح الجامع .

ولكن الشيوعيين- والحمد لله - قد تواروا خجلاً من شعارهم ذاك .. وفرض عليهم الفكر الإسلامي أن يعودوا إلى الجحور ، بل إنهم ليحاولون تلقي الإسلام الآن .. والدخول من باب آخر .. ونحن لهم ولكل ملاحدة الشرق والغرب بالمرصاد إن شاء الله .

وقد كنا قد كتبنا هذه الفصول (في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) كي نقلب المائدة في درجة ملاحدة الشرق والغرب الذين حاولوا تصوير الإسلام وكأنه ضد المستضعفين ، أو كأنه يقف موقف الكنيسة التي تواطأت مع الإقطاع ضد الشعب .. وتقاسمت معه الغنائم على حساب المقهورين حتى كان شعار الثورة الفرنسية (اشنقوا آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس) فالموقف في الإسلام .. موقف الدعاة المسلمين .. موقف مناقض لهذا الموقف الكنسي .. وقد كان الإسلام ورجاله المخلصون ضد كل حركات الظلم والاضطهاد في التاريخ الإسلامي .. وتاريخ رجال الدعوة والفكر .. فضلاً عن مبادئ الإسلام في العدالة الاجتماعية خير دليل على ذلك ..

والحق أننا بعد مرورنا بتجربة العقود الثلاثة الماضية ، وانهيار الفكر الشيوعي في النظر والتطبيق .. نرى أن القضاء على الملكية الخاصة- وليس تهذيبها وتوجيهها- أمر لا يمتنع على التصور الإسلامي الصحيح بشيء .. وأن تحويل العامل إلى كائن غير منتج حسبه أن يطالب بالحقوق والعلاوات والأرباح .. هو عمل مدمر ليس من الإسلام في شيء كذلك .

ونرى أنه لابد من توازن بين الواجبات والحقوق .. وأن الواجبات تسبق الحقوق .. وأنه لابد من موازنة عادلة بين الملكيتين الخاصة وال العامة .. وأن ترك الأثرياء يطغون ويعيشون بأموال الأمة أمر ينكره الإسلام ، وكذلك فإن ترك العمال والفلاحين يستأسدون ويدمرون - ولا يعملون- وتلليلهم تحت شعارات مختلفة أمر ينكره الإسلام كذلك ..

وإذا كان العامل- في البلاد الرأسمالية- يعمل بجد وإخلاص ثمانى ساعات كاملة أو أكثر .. فبأى شيء تسمى البطالة المقنعة للعمالة في البلاد التي تزعم أنها تقوم على العمال ولصالح العمال ، ولاسيما في عالمنا الإسلامي .؟ !

إنه لاكرامة في ديننا لمن يخالف الإسلام ويتحطى سنن الله الكونية مهما رفع من رايات .. أو زعم أنه يتوجه إلى الشرق أو الغرب .. فالشعارات - مهما كانت براقة- لن تغنى عن الحقائق فتيلاً .

وفي كتابنا هذا خلال طبعاته السابقة كنا قد عرضنا البعض من القضايا .. وقد جد

من الحقائق مايدعونا إلى أن نعود إليها بشيء من التمحيق .. وكما يقول المثل : (رب يوم بكىتك منه .. فلما جاء غيره بكىتك عليه) .. فقد كنا قد وقفنا من بعض الصور الاجتماعية والاقتصادية التي كانت قد وصلت إلينا الموقف الإسلامي الذي أملأه علينا ضميرنا الإسلامي .. لكن يبدو أن الأمر لم يكن كما وصلنا .. فقد كان هناك شطط في المصادر التي نقلت هذه الصور وبالغت في تشويهها .. !!

وقد أيقنت بعد تجارب كثيرة أن الحركات الإصلاحية السليمة تخضع لتشويه كبير من قبل أجهزة راسخة مشبوهة ، ومن هذه الحركات حركة جمعية العلماء في الجزائر ، وحركة السنوسية في ليبيا ، وحركة الإخوان المسلمين في مصر ، والحركة السلفية في الجزيرة على يد المجتهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وحركة توحيد الجزيرة العربية بقيادة الملك عبد العزيز .. السلفي العاقل والسياسي المحنك .. رحمة الله ..

* * *

وأحب أن أنتهز فرصة إعادة تطعيم هذا الكتاب بعد هذا المدى المطالع من الزمان ... فأقول - بصفة عامة حول بعض ماورد في هذا الكتاب - إن بعض ماورد ما قد يقرؤه الناس فلا يحسون بصداء كما كنا نحس به يوم كتبنا ماكتبنا يرجع إلى أن الكاتب المسؤول يكتب بإحساسه وباجتهاده وفق مايصله من معلومات .. ولقد كنا في الأربعينيات والخمسينيات نتلقي المعلومات عن ظاهرة الإقطاع تلقياً مشوهاً مضخماً .. وليس يعني هذا أن الإقطاع لم يكن له سيئات ، ولكن الحقيقة أن الذين صوروا الإقطاع لم يكونوا دعاة إصلاح وإلا لكان موقفهم من الإقطاع ورجاله ليس القتل والتشريد والمصادرة الكاملة وإبادة الكفایات النادرة ، وإنما كان الإلزام بالقانون ، وبخدمة المجتمع وبنطوير الاقتصاد ، ويرفع الظلم ، وبمصادرة ما كان أصله حراماً من غش أو وساطة أو احتكار .. لكن هؤلاء الذين صوروا الإقطاع كانوا يريدون وراثة الإقطاع ، وقد ورثوه بالفعل وأصبحوا إقطاعيين يحملون أسماء ثورية بل صار شرهم أكثر كثيراً من إقطاعيين !!

وهكذا كانت الرؤية خاضعة لظروف وقية فلما تكشفت الحقائق لزم تغيير الآراء (وهذا باب من أبواب الاجتهد التي تتغير فيها الرؤى والأحكام) .. ومثل هذا يقال فيما كنت قد ذكرته من آراء حول المملكة السعودية والملك عبد العزيز .. وبعد دخولي المملكة وزوال حواجز المعرفة ورجوعي إلى المصادر ، وتعارفني خلال سبع سنوات أمضيتها في المملكة على نواحي التطور ، أدركت أن الملك عبد العزيز من خيرة الرجال الذين بذلوا الكثير ، وكان رجل توحيد ووحدة .. وقد حقق الأمان في المملكة ، وأسدى خدمة جلى لل المسلمين بتأمين طرق الحجاج .. كما أنه استن سنتاً حميده -

كمساعدة المسلمين فى كل بقاع العالم وعقد المؤتمرات الإسلامية- مما كان له أثره فى ترسیخ هذه السياسة فى أبنائه من بعده أغانهم الله للسير على خطاه!!

لقد ذكرت فى كتابى « المسلمين يستقبلون القرن الخامس عشر » أنه قد تبين لى أن الملك عبد العزيز « ملك عابد صوام قوام » .. وأحمد الله أنى قلت هذا الكلام لوجه الحق .. بعد أن أمضيت سنوات عملى فى المملكة وتركت عملى الرسمى بها فقلت ماقلت خالصاً لوجه الله .. لا إرضاء لأحد ، ولا خشية من أحد .. فأنا لا أريد أن أقى الله ظالماً لأحد ، ولا مجاملاً لأحد على حساب الحق الذى علمنا إياه ديننا .. دين الحق ..

وإحقاقاً للحق فإننى أذكر أن الأسرة السعودية فى العشرين سنة الأخيرة قد حققت أكثر ما كانت قد تمنيته فى هذا الكتاب قبل ثلاثين سنة ..

لقد كنا قد تمنينا أن يكون استعداد مكة لإيواء الحجاج والعمار أرحم وأجمل من استعداد روما للقاء أبناء البابا ..

وتنينى أن تبني بدل القصور الخاصة الفنادق العامة التى تؤوى الحجيج ، وتنينى ألا يوكل وفود الحجاج إلى متعهدين ومطوفين كل همهم الكسب وليس راحة الحجاج ! ..

وتنينى أن تهدم الطرق ويستبدل بالطرق الوعرة طرق مهدهة ..

وتنينى أن تزدهر فى مهبط الوحى دراسات الدين والعلم ، وأن يرتقى السلوك والخلق بحيث يحس الحجيج والقادمون أنهم فى جو روحى منعش وأن صلتهم بالله تربو فى هذه البقاع الطاهرة ..

والحقيقة أن الأسرة السعودية فى العشرين سنة الأخيرة التى لم يطبع فيها كتابنا هذا لم تقصّر فى تحقيق هذه الآمال .. وقد شهد القاصى والدานى بأنها تكدى الجهد فى سبيل راحة الحجيج ، وقد ألغت ضرائب الحج ، وأنفقت مئات الملايين فى توسيعة الحرمين الشريفين وأنفقت المليارات فى تبديد الطرق وقامت ببراقبة المطوفين والمعتهدىن ، كما أقامت فى مكة المكرمة مهبط الوحى (جامعة أم القرى) منارة لدراسات الدين والعلم ، وهى منارة شامخة يقوم عليها رجال مخلصون لدينهم ووطنهم ..

ونحن ما زلنا نأمل المزيد من الجهد من رجال الحكومة السعودية الذين قدّر الله لنا أن نعيش بين ظهراً نيه سبع سنين ، فرأينا فى كثير من رجالهم أخلاقاً لم تفتتها النعمة ، وخشوعاً وتواضعاً وغيره حميده على الإسلام ، وما زلنا نؤمن بأن الحكومة السعودية « بخاصة » أمل كبير للمسلمين ، وبالتالي يجب أن تبذل فوق ما تبذل فى

سبيل التضامن الإسلامي ، ورفع المعاناة عن المسلمين ، ومقاومة الغزو الفكري ، وفي سبيل تقديم النموذج الذي يقترب بال المسلمين من أيام الخلافة الأولى مع مراعاة الظروف والأحوال .. أuanها الله ومكنها من تحقيق آمال المسلمين فيها .

بقيت نقطة أرى من الضروري العروج عليها ، لأنها من جملة ما كان قد ورد في هذا الكتاب « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » وقد تبين لنا وجه الحق في حقيقتها ..

فقد كنا قد تحدثنا عن النزعة الطائفية الموجودة لدى بعض الدول الإسلامية ، كما تحدثنا عن استخدام بعض الدول للقوة والبطش في سبيل تحقيق الأمن .. !!

والحق أنه فيما يتعلق بالملك عبد العزيز .. فقد كان الرجل محباً للعدل ، بعيداً عن التعصب ، يجمع في حاشيته بين الحجازي والنجدي والمصري والشامي والعربي وكل من يستطيعون تقديم الشورى والعون له .. وقد حكم مملكة - بعد أن وحدها - تبلغ مساحتها أكثر من مليون وخمسمائة ألف كيلو متر مربع ، وتتوزع مدنها وقرابها بين مراكز متباعدة ، وتمثل الصحراء ورمالها الجزء الأكبر في هذه المملكة .. وقد كانت الأمور قبله وقبل توحيد الجزيرة فوضى يعتدى الأقوياء على الضعفاء ، ويبغى أهل الباية على أهل الحضارة ، ويتقاول أهل الباية فيما بينهم قتالاً مستمراً يشبه قتال الجاهلين .. والأسوأ من ذلك أنهم كانوا يستبيحون هذه الغارات ويسمونها (غزواً) ويعتبرونها مصدر رزق حلال ، ومظهر رجولة وعروبة .. ويتملقهم حكام الأقاليم - قبل الملك عبد العزيز - كسباً لطاعتهم أو خوفاً من جنوحهم - إن طبقو عليهم الشريعة - إلى صفوف خصومهم .. وفي هذا المناخ كانت تفرض على الحجاج المارين الإتاوات .. فكلما مر الحجاج من جزء تسيطر عليه قبيلة دفعوا لها ما يسمى (الخوة) - أي الإتاوة - ومع ذلك فقلما كانوا يسلمون من السلب والنهب أو القتل !! .

لقد قتل⁽¹⁾ الملك عبد العزيز ستة عشر قاطع طريق من عتاة المغاربين للهلال نصف قرن .. وقد حقق هذا أماناً عظيماً تعمت به المملكة والوافدون إليها ، وهو أمن لم تصل إليه دولة - تقريباً - في العصر الحديث ، مع سعة المملكة ، وقلة سكانها وتباعد عمرانها - كما ذكرنا - وقد التزم الملك بتطبيق الشريعة - وهو يحاكم الجرميين قطاع الطرق .. وأين هذا - وسيلة وغاية - ما ارتكبه الشوريون الذين اعتدوا على أبسط حقوق الإنسان .. دون أن يحققوا أماناً أو يطبقوا شرعاً .. بل زرعوا الرعب والخوف وحب الهروب من الأوطان في كل قلب آمن ، وعقل معطاء ؟ !!

إننا نقف ضد كل ظلم ، وضد كل جريمة تعالج بجريمة ، ونحن كذلك ضد كل

(1) بعد الحرابة .

طائفية يستعلى بها الناس على بعضهم .. فلا استعلاء في الإسلام - أصلًا - وما يشيع بين بعض المسلمين الآن من صور العنصرية والاستعلاء الوطني أو القبلي وبقية من بقايا الجاهلية يجب أن يتكاتف المخلصون على تحطيمها .. فال المسلم - الحق - أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذه .. والجنسية الإسلامية فوق كل الجنسيات الوطنية .. وببلاد المسلمين هي لكل المسلمين ، ويجب أن تسن القوانين التي تكفل للمسلم الحياة الكريمة ، والعمل الشريف ، في كل بلد إسلامي يستطيع أن يجد عملاً فيه ، وأن يخدمه ، وذلك في إطار التشريعات الإسلامية الخاصة بالعمل والعمال .

وأنا والله لا أدرى .. لماذا يستعلى بعضنا - نحن المسلمين والعرب - على بعض .. وكلنا في الهم شرق - كما يقول الشاعر - وما مصدر هذا الاستعلاء والشرع الإسلامي يحرم تحريماً قاطعاً هذا التنازع البغيض .. وهذه الجاهلية المدمرة ..؟؟

وكيف يصبح المسلم غريباً في بلد إسلامي بينما يكرم - في كثير من الأحيان -
الصلبي واليهودي والملحد !!؟

إن أوضاعاً كثيرة قد تغيرت خلال العقود الثلاثة الماضية .. وإن معدلات كثيرة قد انقلبت ، ومفاهيم قد تحولت من النقيض إلى النقيض . كل هذا صحيح .. لكن من المؤكد أن صوراً كثيرة من الخلل ما زالت تجتاح عالمنا الإسلامي .. في أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ..

وللأسف فإن كثيرة من الحلول المطروحة - لأنها لا تنبع من الفقه الصحيح
بالمسلم - تجذب تارة إلى اليسار ، وتجذب تارة إلى اليمين وقد تعالج (صداعاً) فتجلب
بعلاجها سرطاناً .. !

ولابديل إلا أن يصح فقهاً بالإسلام ، وتحسن عودتنا إليه ، ونفهم الدنيا المحيطة بنا ..

﴿وَمَنْ أَحْسَنْ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوْقُنُونَ﴾ (١)

١٤٠٧ هـ

١٩٨٦ م

٥٥٦ الفزال

(١) سورة المائدة الآية ٥٠ .

مقدمة الطبعة الأولى

هذا بحث مجمل في موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية ، اعتمدت في موضوعه على الدراسة المجردة لنصوص الدين ، والفهم المستقل لآثاره الثابتة .

ولم أجنح من هذه الدراسة إلى المقارنة بين نظام ونظام ، أو المفاضلة بين مذهب ومذهب من هذه الأنظمة والمذاهب التي تخوض عنها تطور الفكر الإنساني في العصر الأخير ، فليس هذا ما يعنيني ، ولست أملك العدة الالزمة لاستقصاء البحث فيه .. ! وإنما ألفت هذه الرسالة ، ورتبت فصولها المحددة ، لغاية واحدة : هي إعطاء القارئ صورة صادقة عن الفكرة الذاتية للدين ، والروح العامة لمبادئه ، والموقف الذي يقفه بيازاء الأفكار الاقتصادية المختلفة .

وللقارئ بعدها أن يقارن ويفاضل ، ويستخلص من النتائج ما يشاء ، وحاشاى بهذا الكلام أن أقحم الدين فيما ليس له ، أو أن أحمله من الآراء مالا شأن له به ، فما إلى هذا قصدت .. .

كل ما أبغىه أن أنصف الدين من سوء الفهم ، وسوء الاستغلال .

فقد أنكرت الشيوعية الدين ، لأنها حسبته مخدراً للشعوب ، ومسكناً لآلام الطبقات المظلومة ، وصارافاً لهم أبنائها عن المطالبة بحقوقهم المضيعة .. !

واحتقرت الرأسمالية الدين ، إذ توسلت به إلى إشباع المطامع الجشعة ، وإقرار الفوارق الجائرة ، وتعويض النهضات الحرة .. !

والدين مظلوم بين من كفروا به ، ومن جحدوه !

بين الشيوعية المتطرفة والرأسمالية المتغيرة !

ولابد من أن نكشف عن حقائقه ، وأن نبين معالمه ، لنرد عنه سوء الفهم ، وسوء الاستغلال جميعاً .

والسبيل العادلة إلى ذلك ، هي تحديد موقفه من نصوصه نفسها ..

* * *

وقلما تنصرف النفوس عن الدين ، لو عرض عليها عرضاً صحيحاً نقياً ، فإن أسباب الكفر مفتعلة عند أغلب المترمدين بالتدين .

وأكثر هؤلاء كافر بما لا معنى للإيمان به .. مرتاب فيما تحب الريبة فيه .

ولو أتيحت لهم الفرصة ، وكشف عن أعينهم الغطاء ، ودرسووا الدين كما أنزل من عند الله ، لا كما أخذ من الناس لعادوا من أرسخ الناس دينًا وأعمقهم يقينًا !

ذلك أن الدين - مع الأسف الشديد - مصاب منذ القدم بإضافات زائدة ، وأفكار فاسدة ، شابت جوهره ، وعكرت حقيقته ، ولبست تراث النبيين الهداء بأضاليل الشياطين الغواة .

وعلينا أن نفصل الحق من الباطل ، وأن نميز الخبيث من الطيب ، حتى لا تختلط أمام النظارات السطحية أسباب الهدى بأسباب الضلال .

فإذا تميز الخير من الشر ، وانفصل كذب الأرض عن وحى السماء ، لم يبق ثمة موضوع لسوء الفهم ، أو سوء الاستغلال !! ولم يبق على التنكر للدين إلا أقوام من المتنطعين والمعتنيين .

والى هؤلاء لا يساق حديث ، ومنهم لا ينتظرون اقتناع .

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة - بشأن الدين ، وما يطرأ عليه من أوهام ، وما يضاف إلى حقيقته من بدع وخرافات - فقال ^(١) :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ^(٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ^(٢) .

أجل فإن حقائق الدين من منابعه الفريدة الأولى ما إن أخذت تسرى فى مجريها من هذه الحياة حتى علق بها من رواسب البيئات ، ومخلفات القرون ، وجهالات العامة ، وشهوات الخاصة ، ونزوات الحكام ، ماذهب بالكثير من صفائها ونقائها ،

(١) الآيات تحزم بأن رسالات السماء يشوبها أحياناً من دس الشياطين ، وجدل المكابرین ما يعكر صفوها ، ولكن الله يتداركها بما ينفي الدخيل ويبقى الأصيل وعلى طلاب الحق ألا يكفروا بالوحى لهذا اللبس العارض .

(٢) سورة الحج آية ٥٢ : ٥٤ .

حتى لتشبه «ماء النيل» في مجراه الأدنى ، لا يصلح للشراب إلا بعد مجهدات متعاقبة من الترشيح والتنقية ترده «سماويًا» كما كان .

وقد خضع موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية لهذه الصبغة العامة ، والسنّة المطردة ، فظن الناس فيه الظنون ، وتولدت من ذلك رأسمالية جائرة ، وشيوعية كافرة .

ومن حسن الحظ أن الاضطراب الذي أصاب الناس في أعمالهم وأحكامهم لم يؤثر تأثيراً خطيراً على المقياس الذي تناول به هذه الأعمال والأحكام بالنقد والتخطئة والتوصيب . . .

فمعرفة الحقيقة لا تزال في مقدورنا ، ورسم حدود للدين تنفي ماوراءها عن حظيرته المقدسة ، أمر سهل .

وقد كافح كثير من أئمة الفقه والتشريع والإصلاح على مر القرون ، لنيل هذه الغاية فنالوها .

على أن الإنسانية لم تزل بحاجة إلى من يوضح هذه الخطوط ، إذا درست بفعل العوامل المختلفة ، وتعهد ذلك ضرورة لابد منها لمصلحة الدين ، ولمصلحة الناس أجمعين .

* * *

وأقصد بالدين ، الخلاصة التي اشتركت كافة البيانات في تقريرها ، وعملت الرسائل المتعاقبة على إبلاغها . ثم جاء القرآن الكريم فأفرغها في صيغتها الأخيرة ، وأعطها صيغتها النهائية ، وربطها بفطرة النفس السليمة ، والعقل الرشيد ، ووجه قلب الإنسان ولبّه إليها ، عندما قال :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ حَنِيفًا فَطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٠) (١)

وعلى نصوص هذا القرآن ، أعتمد في الاستدلال والاستنتاج ، مسترشداً بما قد يرد في السنّة في شرح وتفصيل .

وأكرر مرة أخرى أن البحث في هذه الرسالة ديني محض ، أضعه تحت أنظار معتقد المذاهب الاقتصادية ليحكموا بعده للدين أو على الدين . .

(١) سورة الروم آية ٣٠ .

وطريقتنا تقوم على احترام ظواهر النصوص ، والتمشى مع قواعد الدين العامة ، فإن ضروب التأويل التى تعلق بها الكثيرون ليست إلا لوناً من تحريف الكلم عن موضعه ، خدمة لبعض الأغراض الصغيرة ، أو تحاشياً للاصطدام مع بعض السلطات القائمة ، أو تحكيمًا للعرف السائد والتقاليد المتوارثة في الدين نفسه ، ليelin معها ، وينجرف في تيارها .

لقد ورد في الحديث مثلاً :

« من جدع عبداً جدعناه ، ومن خصى عبداً خصيناه »^(١) .

فجاء قوم وقالوا : إنما قصد الشارع عبداً تحرر !

والغرض من هذا التأويل أن يجر الدين إلى جواز خصى العبيد !!

وقد التصقت هذه السبة بالدين ، حتى جاءت الحضارة الحديثة فحرمت النخاسة^(٢) وما يتبعها من خصى ونحوه ، وهي وما تبعها لم تحل في دين من الأديان ، بل قد وردت نصوص تحرم اختطاف الأحرار ، وتحرم إيذاء الرقيق بالكلمة - بل قتل الرجلة فيهم .

ولكن سوء الفهم - هنا - فرض على الدين فرضاً ، فتجنّى الناس على الدين . !
وجاء الدين - مثلاً - يقرر الشورى في الحكم ، فجاء بعض المفسرين يقول : إن الحاكم يستشير ثم يمضي على رأيه ، لا على الشورى !!
وبذلك أصبح معنى النص يتحمل الشيء وضده !

فإذا قال القرآن : ﴿ وَشَوَّرُهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾^(٣)

كأن معنى الآية يبيح للحاكم أن يكون ديمقراطياً وأن يكون مستبداً !! مادام له حق القبول وحق الرفض . !!

ومثل هذه التأويلات ترحب بها الحكومات المستبدة في الشرق الإسلامي ، ولعلها نبتت في ظلها وبايعاز منها ..

(١) ورد برواية « من قتل عبد قتلناه ومن جدع عبد جدعناه . . . » عن سمرة . أخرجه الإمام أحمد ، وابن ماجه في سننه ، والنسائي ، والترمذى في سننه وأبو داود تحت ٥٤٩ في ضعيف الجامع .

(٢) خطف الأحرار على نحو ما كان يحدث في القرون السابقة .

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

ومن ثمَّ قال الشيخ محمد عبده- في هذه التمحلات البعيدة- « إنها نزعات شياطين ، وشهوات سلاطين » .

وقد هونت هذه التأويلات من قداسة الدين وغضت من كرامته ، ولذلك نريد أن نخليها عنه .

﴿فَأَمَّا الزَّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾^(١)

ثم يجب أن نعرف أن هناك أهدافاً كبرى للدين ، يعمل للوصول إليها ولا يتخلى أبداً عن المطالبة بها ، وله مطالب أخرى ثانوية ، تدور مع الأهداف الكبرى ، كما يدور عَقْرُبُ الشوانى في الساعة ، يتوجه كل ناحية ، ولكنه - في حساب الزمن - خاضع للعقربين الكبيرين ، لا يضطرب أبداً معهما .

وكثير من المتدينين ، وقفوا عند هذه المطالب الصغرى ، فلم يفهموا من الدين إلا قشوراً ، لا تُغْنِي عن اللُّبَاب ، وقيوداً تنبو عنها روح الكتاب .

وموقف الدين من الأوضاع الاقتصادية ، يتطلب منا أن نحترم النصوص الجزئية ، وأن نحترم- كذلك- الدلائل العامة .

فنحن نريد أن ننصف الدين .

نريد أن نداوى بالإيمان ما يراد له أن يُداوى بالكفر والعصيان ! !

وسيجد القارئ في هذه الرسالة طائفة من الأفكار الإسلامية ، أرجو أن تكون بدايةً موفقة للكلام في هذا الموضوع الخطير .

محمد الغزالى

(١) سورة الرعد آية ١٧ .

الطبقات المترفة والطبقات البائسة

الترف والبؤس:

للترف تاريخ يضرب في أغوار القدم .

ولمظاهره المادية والأدبية آثار عرفها المتقدمون والمؤخرة من سكان هذه الأرض على اختلاف أقطارهم .

وللبؤس - كذلك - تاريخ تمتد جذوره في ماضي الإنسانية البعيد - ولصورة المادية الكثيبة ، معالم عرفها الأسلاف والأخلاق جميعاً .

وكلا الأمرين - من ترف وبؤس - توارداً توارداً عاماً على أجيال البشر ، لا كما يختلف الليل والنهار اختلافاً منتظماً ، يستوي الأحياء كافة في الانتفاع بضيائه والهدوء في ظلامه .

بل هو توارد آخر ، جعل ظلام البؤس قسمة لبعض الناس ، يعيشون فيه أبداً ، ويفقدون فيه أبصارهم - إذ إنها لا ترى فيه شيئاً .

وجعل شعاع النعمة مشرقاً على بعض آخر ، فهم يعيشون فيه أبداً ، وهم يعمون فيه كذلك ، من طول ما يهُرُّهم رونقه ، وينخذ أبصارهم تالقه ! .

وفي ظهور الترف والبؤس ، توجد الطبقات المترفة ، والطبقات البائسة ، ويولد نظام الطبقات ، ويحدث التظالم الفردي والاجتماعي والسياسي .

وتنشأ معانٍ السيادة والرق ، والقداسة والضعة .

وتقرر شتى التقاليد المرتبطة بهذه الأمور ارتباطاً يقترب ابن المفعع من وصفه إذ يقول :

«إذا افتقر الرجل أتهمه من كان له مؤمناً ، وأساءَ به الظن منْ كان يظن به حسناً .

فإذا أذنب غيره ظنّوه ، وكان للتهمة وسوء الظن موضعًا .

وليس من خلّة هي للغنى مدح ، إلا وهي للفقير عيب :

فإذا كان شجاعاً سُمِّيَّ أهوج ، وإن كان جَواداً سُمِّيَّ مُفسداً ، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً ، وإن كان وقوراً سمي بليداً ، وإن كان لسيناً سمي مهذاراً ، وإن كان صموماً سمي عَيِّناً » .

سر هذا التقسيم :

وَقَرَ فِي النُّفُوسِ : أَنْ تَفَاقُتَ النَّاسُ فِي اقْتِسَامِ الْأَرْزَاقِ سُنْنَةِ إِلَهِيَّةٍ ، وَأَنْ انْقَسَامَ الْأَمْ -
تَبَعَا لِذَلِكَ - إِلَى طَبَقَاتٍ ، تَتَفَاضَلُ بِحَسْبِ مَا تَمْلِكُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ وَخَيْرَاتِهَا ، أَمْرٌ
طَبِيعِيٌّ . فَصَدَّ إِلَيْهِ الدِّينَ بَلْ صَرَحَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، وَفِي تَسْوِيغِ ذَلِكَ تَسَاقُّ آيَاتٍ شَتَّى .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَلْوَكُمْ فِي
مَا آتَكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾^(١)

﴿ وَاللَّهُ فَضَلَّ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرِآدِيِّ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنَعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾^(٢)

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾^(٣) أَهُمْ يَقْسِمُونَ
رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مَمَّا يَجْمِعُونَ ﴾^(٤)

ونحن نقول : بأن الدين منذ - فجر الخليقة - حارب فكرة انقسام الناس إلى طبقات ، على أساس ما يمتلكون من أنصبة مادية ، جليلة أو قليلة .

والأيات السابقة لاتخدم الغرض الذي تساق من أجله ، ولا يجوز أن يبقى في ظلها نظام الطبقات المعروف بآثمه ومعارمه ومظالمه .

فالآلية الأولى ، إنما تدل على أن الله استخلف الناس في الأرض ليعمروها وليكدوها فيها ، وفاقت بينهم فيما منع من الوسائل الأدبية والمادية التي تعين على ذلك .

والتفاوت في الموهاب الإنسانية والجهود الإرادية حقيقة لا ريب فيها .

فالناس ليسوا سواء في الذكاء والغباء ، وليسوا سواء في العمل والكسل .

ومن ثم يجب ألاً يتساووا في الأجر المادي والأدبي الذي يأخذونه بإزاء طاقتهم

(١) سورة التحـلـ آية ٧١ .

(٢) الأنعام آية ١٦٥ .

(٣) الزخرف آية ٣١ .

وجهدهم . وذلك معنى الابتلاء الذى تضمنته الآية والتهديد الذى ختمت به . إذ إن الله سائل كل امرئ حتماً على قدر ما أتاه من خصائص ، ومنه من ملكات ..

والآية الثانية صريحة فى أن التفاضل فى الرزق - إن جاء من أسبابه المشروعة - لا يسوغ أن يكون مثار جشع وحرص ، يجعل الفاضل بخيلاً به على المضطول ، بل ينبغي أن يرد الممتازون بالمال بعض ما معهم على من تحت أيديهم ، من الخدم والأتباع وغيرهم ، شكرًا لله على ماميزهم به من موهب وسلطان .

وأما الصنْ بالخير على الفقراء إليه فجريمة لا يقرها دين .

وليس فى الآية ماينفى جعل التفاضل فى الرزق تابعاً للتفاضل فى العلم والفن وخدمة الوطن والمجتمع ، بل ذلك مفهوم من الآية الأولى ومن غيرها .

وأما الآية الأخيرة ، فهى تشير إلى أن جسم الأمة كجسم الإنسان ، لا بد فيه من رأس مُدبر ، وعقل مُفكّر ، ومن أطراف تُسخر للتنفيذ ، وأعضاء يُستعان بها على بلوغ الغايات المقصودة ..

وهذه حقيقة مقررة فى كل نظام إنسانى ، فإن الناس لا يصلحون فوضى .

والمصالح العامة لأية أمة لا بد فيها من تنوع الوظائف إلى علمية وعملية ، وإلى مدنية وعسكرية ، وإلى زراعية وصناعية .

ومن هذه وتلك يوجد التافه والخطير ، والدقيق والجليل .

ولكى تصلح الأوضاع يختار لكل وظيفة من يستطيع القيام بأعبائها ، ومن ترشحه موهابه للعمل فيها ، وملكات الناس فى ذلك متبانية أشد التباهي .

فهذا مهندس للمصنع يعمل فيه بعقله ، وهذا عامل مجرد يشتغل فيه بيده ، وهذا يتبع ذاك فيما يشير به ، لأن هذا يضع التصميم ، وذاك يقوم بالتنفيذ .

والخضوع الواجب فى مثل هذه الحالات ، هو خضوع الجندي لأوامر القيادة ، فليس هو - أبداً - تسخير إذلال وقهر ، ولكنه تسخير نظام وعمل .

هو ترتيب يشبه ترتيب الأعداد صعوداً أو نزولاً ، فال الأول قبل الثاني ، والثانى بعد الأول .

وأساس هذا الترتيب أو هذا التسخير ، هو الكفاية الذاتية وحدها .

* * *

على أن الملاحظ فى البيئات التى يظهر فيها الترف والبؤس ، ويوجد فيها نظام الطبقات ، غير ذلك .

إذ يقوم التفاوت المالي مقام التفاوت العقلى . ويستنكر بروز النابغين من الطبقات الفقيرة ، أو توضع العوائق الكثيرة لعرقلة نوهم ، واحماد نارهم .

وهذا ماسجّله آية القرآن الكريم حين حكت الاعتراض على نزول الوحي في بيت فقير :
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيَّتِينَ عَظِيمٍ ﴾^(١) .

وحيث ردت الأمور إلى نصابها ، جاعلة التفاوت العقلى وحده أساس اقسام الناس إلى حقير أو عظيم ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حِيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾^(٢) .

وهكذا تخير الرحمة العليا محلها الذي تهبط إليه ، غير معترفة بالأساس الجائر للتفاوت المادى بين الناس ، فهو مقياس باطل لعظمة مزيقة .

ومن ثم تختتم الآية بهذا التذليل ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾^(٣)

إن الكلام في «النظام الظبقي» يحتاج إلى مزيد من البيان .

فإن بعض الناس فوضى الفكر يحسب أن كل امرئ من الناس ككل امرئ آخر لا فروق ولا خلافات . !!

ومن الناس من يتصور أن البشر خلق بعضهم ليسود والآخر ليضاد . ! .

ولاريب أن هذه الأخيلة بعيدة عن الصواب الذي يقرره الدين ، وعن المنفعة التي تقوم عليها الدنيا .

إن المساواة المطلقة خرافه ، والتفاوت المفتعل لغير سبب معقول مرفوض من أساسه ..
الناس سواء في الحقوق العامة ، فحق الحياة مثلاً لاريب فيه لكل إنسان ولا يقبل إهادره لعذر مفتعل ، فلو أن فيلسوفاً قتل حملاً لقتل فيه ، ولو أن عملاً قاتل طفلة لقتل فيها ..

ويكن إحصاء الحقوق العامة ، وإقامة الشرائع المترمة لحمايتها وصد العدوان عليها .

لكن هناك حقوقاً خاصة لابد من تقريرها ، ويستحيل قبول المساواة فيها ، وهذه الحقوق تتبع التفاوت الطبيعي الموجود في الأشخاص والأشياء !!

(١) سورة الزخرف آية ٣١ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٤ .

(٣) سورة الزخرف آية ٣٢ .

إن الحجارة منها ما هو كريم يباع بأعلى الأثمان ، ومنها ما هو خسيس يترك مكانه لأنه لا يساوى عناء حمله !

والاختلاف في مواد الأرض صورة للاختلاف بين طبائع البشر ومواهبهم .. هناك البليد الذي لا يحس القريب من أنفه .

وهناك الألمعى الذي يظن بك الظن كأنه قد رأى وقد سمعا . !!

وهذا التفاوت قدر أعلى ، ويبدو أن الحياة لا تقوم إلا به ، وقد تبدو له صورة عجيبة ، فهذا أخوان شقيقان رزق أحدهما رقة في حاله الصوتية ، فإذا هو «فنان» وإذا فنه يورثه الضياع والقصور ، ورزق الآخر حنجرة عادية ، لم تجد عليه قليلاً ولا كثيراً ، فعاش في غمار الناس ، لاسمعة ولا ثروة .

وإذا تركنا ميدان المال إلى ميدان النبوة العالى وجدنا هذا التفاوت بارزاً ، ﴿ تلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلَنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَنْ كَلَمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾⁽¹⁾

إن هذا التفاوت بين الناس حقيقة لا يمكن إنكارها ، ولا يمكن لنظام بشرى أن يلغيها أو يغض من نتائجها ..

وهذا - وحده - هو المقصود بقول الله : ﴿ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾⁽²⁾ .

ربما كان هذا الرفع بأصل الخلقة ، وهو كثير ، وربما كان بتوفير الظروف المعينة على الارقاء ، وهو أيضاً كثير ..

وهنا نسأل : هل معنى رفع الدرجة قرب المنزلة من الله ، وكسب اختبار الحياة المفروض على الناس أجمعين ؟

والجواب السريع : لا ، إن الموهاب الرفيعة تتعرض لتجارب أشق ، وامتحانات أصعب ، بقدر ماتميزت به طاقة ، والخصيات التي تتحرك على ظهر الأرض في نطاق محدود غير الكواكب التي تقطع أجواز الفضاء في سرعة لاهثة .

(1) سورة البقرة آية ٢٥٣ .

(2) سورة الأنعام آية ١٦٥ .

وقد فسر القرآن الكريم هذا الاختلاف في الدرجات بأنه أساس للاختلاف في التكليف والابتلاء ، فقال : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوْكُمْ فِي مَا آتَكُمْ ﴾⁽¹⁾ .

وظاهر ما أوضحنا أن «الدرجة» غير «الطبقة» .

الدرجة صفة نفسية خاصة ، أما الطبقة فمجموعه من الناس ادعت لنفسها صفات وحقوقاً معينة ..

قد تقول : من حق المتفوقين من الناس أن يجمعهم عقد خاص بهم ، ويتميزون به على غيرهم !!

ونقول : لو حدث ذلك لفرض هذا العقد على الدنيا نفسه ، ولما نهض منطق يرفضه .

لكن تصور ذلك يناقض واقع التاريخ ، وسير الجماعات البشرية !! ولننظر إلى الأمر بإنصاف وروية ..

هل هناك طبقات من الناس جمع بينها الذكاء والإنتاج والتفوق والإقدام وانتظام صفوفها طولاً وعرضًا؟!

وهل نظام الطبقات الذي شقيت به الإنسانية من قبل الطوفان إلى الآن قام على هذا الأساس؟

إننا نقول بملء أفواهنا : لا .. !

إن للناس عيوبًا في هذا المجال يجب أن تذكر ، ولنبدأ باتهام هذه العيوب وأشياعها !!

هل بياض الجلد منقبة تجمع بين أصحابها؟ هل الانتساب إلى ملك ما ، أو أحد الأنبياء ، أو إحدى الأسر ذوات العزوة والمنعة ، مناقب تعرف لذويها؟

إن الطبقية في كثير من بقاع الأرض تقوم على هذا الأساس الخرافى ، وتعطى مجموعات من الناس حقوقاً خاصة!!

لقد اعترفنا بحقوق الكفاية العظيمة المادية والأدبية ، فكيف نعترف بهذا الوهم ..؟ ! ولكن يبدو أن بعض الناس يسره أن يكسب مجدًا بدون جهد ، وتقديمًا بدون تعب ، ولا عليه أن يغالى بالنسبة العريق والجنس الراقى ، فذلك يعود عليه بفوائد ذات بال .. !!

(1) سورة الأنعام آية ١٦٥ .

هل يمكن سوق آيات رفعة الدرجة في هذا المجال ؟ ! كلا ، وسوقها في هذا المجال تحرف للكلام عن موضعه ، وعبث بالوحى الإلهى يدور بين الجهل والكفر . !!

والغريب أن النظر إلى الأنساب والألوان يعصف بالعقل قديماً وحديثاً ، وقد عرفته الجاهلية العربية ، وتعزفه المجتمعات الأمريكية والأوروبية سواء .

وربما قام نظام الطبقات على إبراز بعض الحقائق وإغفال بعض آخر ، فإن قوانين الوراثة قد تنقل الخصائص الرفيعة من الوالد إلى الولد ، وقد يمكن إلى جانب ذلك تطوير البيئة لخدمته ، ودعم قواه وتنمية ملكاته !

ومن هنا يلد الكباء كبراء ، وينسل العظماء عظاماء ..

وهذا الكلام تصوير جانبي يصدق ويذنب ، فإن قوانين الوراثة غامضة النتاج ، وهي تنقل الوضاعة والرفة ، كما أن السيطرة على البيئة قد تحيي فساداً ، وتحيي فساداً من لون آخر ..

وقد استطاع فقراء أن يثبوا إلى الملك ، وجاء من أعقابهم المباشرين من عجز عن البقاء في دسته ..

إن تحويل الامتياز الفردي إلى تفوق عنصري واستعلاء طبقي غير صحيح .

ونحن - مرة أخرى - نؤكد أن الدرجة غير الطبقة ، وأن اختلاف الناس درجات غير انقسامهم طبقات . فالقوانين الطبيعية شيء ، والأمراض الاجتماعية شيء آخر ..

وتوجد محاولات عنيدة من قديم الزمان لتقسيم الناس طبقات على أساس شتى ، دون نظر إلى القيمة الإنسانية الخاصة ، ودون احترام لكافح أحد الناس نحو السمو والكمال .

وبديهى أن تكون الشروة ، أو السلطة محاور لهذه الطبقية المتمردة ! فتجد من بعض الناس استطالة لامعنى لها ، واستهانة بالآخرين لإنصاف فيها ، وتجد شعوراً عاماً بحقوق خاصة ، وذهولاً عن أي واجب مطلوب ، في الوقت الذي يفرض فيه هؤلاء على الآخرين واجبات لا حصر لها دون مقابل معروف .

وقد عمل الإسلام على هدم هذه الطبقية وإعلاء القيم الإنسانية وحدها ، وأخذ ذلك الهدم المقصود صوراً شتى تلمحها في الأحاديث التي نسوق إليك طرفاً منها ..

عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر أترى كثرة المال هو الغنى ؟

قلت : نعم يارسول الله . قال : فترى قلة المال هو الفقر ؟ قلت : نعم يارسول الله .

قال : إنما الغنى غنى القلب والفقير فقر القلب !!

ثم سألني عن رجل من قريش قال : هل تعرف فلاناً ؟ قلت : نعم يارسول الله قال : فكيف تراه ؟ قلت : إذا سأله أعطيه ، وإذا حضر أدخل !!

قال : ثم سألني عن رجل من أهل الصفة فقال : هل تعرف فلاناً ؟ قلت : لا والله ما أعرفه يارسول الله .. فما زال يحليه وينعته حتى عرفته ، فقلت : قد عرفته يارسول الله !! قال : فكيف تراه ؟ قلت : هو رجل مسكون من أهل الصفة .

قال : فهو خير من طلائع الأرض من الآخر !

قلت : يارسول الله أ فلا يعطى من بعض ما أعطي الآخر ؟ قال : إذا أعطي خيراً فهو أهله ، وإذا صرف عنه فقد أعطى حسنة^(١) ..

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : احتجت الجنة والنار - أى نوه كل منهما بشأنه وذكر حجته - فقالت النار : في الجبارون والمتكبرون ، وقالت الجنة : في ضعفاء المسلمين ومساكينهم !

فقضى الله بينهما : إنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشاء ! وإنك النار أذب بك من أشاء ! ولكلكما على ملؤها^(٢) .

وعن أبي ذر قال لى رسول الله ﷺ : «انظر أرفع رجل فى المسجد» .. قال : فنظرت فإذا رجل عليه حلة ، قلت : هذا .

قال : «فانظر أوضع رجل فى المسجد ! فنظرت فإذا رجل عليه أخلاق - ثياب رثة - قلت : هذا ».

قال أبو ذر : فقال رسول الله ﷺ : لهذا عند الله خير يوم القيمة من ملء الأرض مثل هذا .. !

إن تلك الأحاديث ما يصح معناها إلا حيث سقناها فإن الإسلام لا يخاصم الغنى بل يعده فضل الله على عباده ، ولا يخاصم الجمال والزينة بل يستحبها للناس ، ويؤثرون للمؤمنين خاصة ، وإنما يرفض احتقار النفس الإنسانية لطوارئ القلة والقيلة ، ويرفض انتقادها لظروف الشراء والسلطان .

وقد ترى ناساً من المشتغلين بالعلوم الدينية يرسلون فتاوى منكرة فيما يتراءى لهم من أحوال الناس ، فإذا رأوا رجلاً تكن من رياسة أو سلطة وسألتهم عن شأنه ، هزوا رءوسهم ثم غمغموا :

(١) صحيح برواية أخرى ... أخرجه النسائي في سنته ، وصحح ابن حبان تحت رقم ٧٨١٦ صحيح الجامع عن

أبي ذر . (٢) صحيح أخرجه مسلم والترمذى في سنته تحت رقم ١٨٥ صحيح الجامع عن أبي سعيد .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مَمَّنْ تَشَاءُ﴾^(١).

وهذا استشهاد جهول ، وفهم مستنكر ، فإن الاحتجاج بالمشيئة الإلهية لا يجوز في توسيع غصب لمنصب ، أو سرقة لعمل عام أو خاص .

وقد ترى هؤلاء يسكتون سكوت القبر لعامل بخس حقه وظلم أجره ، وينظرون إلى من أوقع به هذا الحيف ثم يقولون :

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾^(٢) ! !

إن هذا موقف بالغ الشر فادح الضرر ، جرىء الكذب على الله ورسوله ! فإن الإسلام يستحيل أن يسيغ ظلماً أو يقبل ضيماً .

وإذا كان الله قد جعل بعض الحيوان قوياً والآخر ضعيفاً ، فهو لم يجعل ذلك ليعتدى قوى على ضعيف .. ، وإنما خالف بين أنواع الموجودات لتنسقها وتنسق العمran .. على أن علماء الإسلام في شتى القرون كانوا أوفياء للحقيقة ، أسانيد للعدالة ، ولم يحطب منهم في حال الحكم الفجرة إلا النذر اليسير .

وجمهور الأئمة ومن تبعهم بإحسان كانوا مع الجماهير ضد المسلطين والمعتدين .. ، غاية ما يؤخذ عليهم أنهم لم يترجموا تعاليم الإسلام ضد المظالم السياسية والاقتصادية إلى قوانين محددة ، ودساتير مضبوطة^(٢) ..

وبعض العلماء المعاصرين من أهل الخير يمشي في هذا الخط ، ويتجاهل ما حققه الإنسانية في سيرها العانى من تجارب ومقررات تحقق الخير للناس ، وترسى رغبات الدين على قواعد متينة !

فإذا سألتهم : ماذا يصنع الإسلام لوقف الاستبداد السياسي والميل الاقتصادي؟

أجابوا : إن أهل الخل والعقد يستطيعون باسمه أن يفعلوا كذا وكذا .. !

والواقع أن أهل الخل والعقد يمكن أن ينتظموا في سلك الأمور الثلاثة المشهورة ، الغول ، والعنقاء ، والخل الوفى .

(١) آل عمران : ٢٦ . (٢) الزخرف : ٣٢ .

(٣) لمزيد من البحث حول دور أئمة الفقه في الحياة الاجتماعية والسياسية ... انظر كتابيه : سر تأثير العرب وال المسلمين .. ، ومشكلات في طريق الحياة الإسلامية .

إنهم في واقعنا المدید أمنية حالمن ، ويجب أن نستفيد من الدساتير الحديثة التي
قلمت أظافر الطغاة ، وأتاحت لكتل الشعوب أن تتنفس في هدوء !

أوضاع معكوسه:

شتان بين ما هو كائن وما يجب أن يكون في بلاد الإسلام البائسة المنكوبة بأفانين
من الاستعمار الداخلي والخارجي .

إن الغنى والفقر- وحدهما- ميزان الطبقات هنا وهناك . !!

الغنى الذي لا يُعرف من أين جاء ، والفقر الذي لا يُعرف كيف حل .

في مصر شعب تضطرب به سهول الوادى الفسيحة ، يكبح وينصب ليرتاح على
ثمار جهوده نفر من الأعيان والوجهاء . !

شعب أقعده الشقاء ، وأضره الحرمان ، وقلة أبطرها النعيم ، وأغواها الطغيان .

وما هذه الفوضى الشاملة؟ وكيف تستقر هذه الحماقة باسم الدين ؟ ! !

أهذا هو الإسلام الذي يجعل العلم وحده مناط رفعة الدرجة ، ويجعل التقوى
وحدها أساس امتياز الأفراد ؟ !

أفتعطى الأعمال في مصر على أساس الكفاية في العلم والدين ؟ ! ..

إذاً فما أسعد الوظائف بأصحابها ! .

أفينقسم الناس طبقات شتى على هذا الأساس عينه ؟ !

إذاً فما أشقي الفقراء بغباوتهم ! .

أم هي الأوضاع المنقلبة والحقوق المسروقة ؟ !

أجل إنها كذلك ، ولو استقام كل شيء على وجهه الذي يرضي الله لازرتقت
جماهير هائلة من الخضيض الذي تقلب فيه ، إلى مستوى آخر تسعد به ويسعد بها .

ما أحوج الشرق إلى أن تعمر العدالة الاجتماعية ربوعه الخربة ، وأن تنقل إلى الحياة
الصحيحة شعوباً أعيادها اللغوب ، وأضناها طول الغلاب ..

أما استغلال الدين لتجريح الشعوب ماتغصّ به من مرارة الظلم وهضم الحقوق ، فهو ضرب قبيح من ضروب الإلحاد ، إن لم يكن أقبحها على الإطلاق .

رأسمالية قديمة :

استوقفتْ نظري هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعْمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمْهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

فإنى شعرت بأن التساؤل الذى انطوت عليه الآية ، يتضمن اعتراضًا رأسمالياً صادقاً فى تصوير حالة قائله .

وادركت أن الفكرة التى يتصدّر عنها الأغنياء ، فى تصرفاتهم مع الفقراء تقاد تكون - قدّماً وحديثاً - واحدة ، لا تتغير ولا تتتطور .

وأساس هذه الفكرة الغائرة فى الماضى ، الممتدة مع الأيام ، أن الله جعل الأغنياء أغنياء هكذا ، لأن الله أحب لهم أن يستمتعوا بنعمة الغنى ، وأن الفقراء ، فقراء هكذا ، لأنه شاء لهم أن يشُقُّوا بمصيبة الفقر .

وأنه فاوت بين الناس ، فخلق المُكثرين والمقلين ، قصداً إلى إقامة فوارق مادية طبيعية بينهم ، على أساس التفاوت فى ثرواتهم ، وأنه لذلك فضل البعض على البعض فى الأرزاق والمعايش ، فليس يجوز إيجاد أى نظام يصادم هذه الحقائق !! .

وقد زَيَّفَ القرآن هذا الكلام الذى لا يحمل مَسْنَحة من المنطق ، وبين قيمة أصحابه عندما عقب على تساؤلهم « أَنْطَعْمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمْهُ » بقولهم : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ »

وذلك أن الأغنياء - فى نظر الإسلام - لا يجوز أن يبقى لهم غناهم كاملاً ، وأن الفقراء لا يجوز أن يبقى عليهم فقرهم كاملاً .

ولابد أن يشترك هؤلاء وأولئك ، فى إقامة مجتمع ، لا يوجد فيه الرجل المترف والرجل المحروم .

ولو أن التفاوت فى الأرزاق كالتفاوت فى الموهب ، ماصح أن يكون ذلك ذريعة لإهدار المصلحة العامة ، بل وجب أن يكون وسيلة إلى إقامة هذه المصلحة وتكليف كل فرد بنصيبيه الشخصى منها ، على قدر كفايته الذاتية الخاصة .

(١) سورة يس ٤٧ .

حقاً ، إن الله فضل بعض الناس على بعض ، في الملوك والوظائف والحظوظ النفسية ، ولا أظن الشيوعيين في بلادهم يستطيعون هذم هذا المبدأ الطبيعي .

فهم يعطون القائد أكثر مما يعطون الضابط أكثر مما يعطون الجندي ، لكن هذا التفاضل في الأرزاق لا يعني التفاوت بين الناس والتظلم بين الطبقات ، والتوقع على مقسم الأرزاق ! .

نقول له : مادمت قد أفترت فلم تغنى ؟ ! ومادمت قد أغنتي فلم تفتر ؟ ! بل يجب أن نجعل من ذلك مبدأ تعاون تام واشتراك عام في بناء مجتمع ينتفي منه الترف والبؤس ؛ ويسوده العدل الاجتماعي الشامل .

* * *

ومن الأقوال التي سمعتها في تبرير الحرمان والهوان ، الذي تلقاه الجماهير الفقيرة ، أن الدين لم يفرض الزكاة في أموال الأغنياء ، إلا على أساس اعترافه بالفقر والفقراء ، ونظرته إلى ذلك نظرة لاغرابة فيها وإنكار !!

وعلى هذه الطريقة في الاستدلال يمكننا أن نقول : إن الدين لم يفرض الجهاد على المؤمنين ، إلا على أساس اعترافه بالكفر والكافرين ونظرته إلى ذلك نظرة لاغرابة فيها ولا إنكار !!

ثم لكي نضمن بقاء فريضتي الزكاة والجهاد ، يجب أن نعمل على بقاء الفقر والكفر ، وإلا لم يبق للأغنياء والمجاهدين ، عمل يقومون به إيماناً واحتساباً ..

أرأيت كيف تنتهي الحماقة بأصحابها ؟ !

إن الله عز وجل لا يحب من الناس ، أن يشردوا أو يفسدوا ، وهو القائل :

﴿إِن تَكُفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفُرُ﴾ (١)

ولا يحب لعباده كذلك ، أن يشقاو أو أن يفتقر ، وهو القائل :

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (٢)

فإذا كان اعوجاج الحياة الإنسانية على ظهر الأرض ، وزيفها عن سوء السبيل ، قد أدى إلى ظهور الفقر والكفر هنا وهناك ، فإن رسالة الدين تقوم على علاج هذا الانحراف ، وتستهدف رد الناس جميعاً إلى الإيمان والأمان .

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥ .

(١) سورة الزمر آية ٧ .

كما تقوم رسالة الطب على علاج الأمراض وقتل جراثيمها ، فهي لاتهادن المرض لحظة .
وكما تقوم رسالة العلم على محاربة الجهل واكتساح ظلماته ، لاتسكت عن ذلك فترة .
فالقول بصداقه الدين للفقر ، يشبه القول بصداقته للكفر ، يشبه القول بصداقه
العلم للجهل ، والطب للمرض !!
إن الخطأ قد يكون طبيعة في البشر .

وتاريخ الإنسانية لا يعدو أن يكون سعيًا نحو الكمال ، وتخالصًا من الآفات العقلية ،
والأوزار الاجتماعية التي ت تعرض هذا السعي الحيث .

لكن بقاء الخطأ في طبيعة الإنسان ، لا يرقى بالخطأ إلى اعتباره ضرورة من
الضرورات المختومة .

فمن الخبر أن يُظنَّ بالدين ميله إلى بقاء الفقر ، لأنَّه أعد له - مثلاً - فريضة
الزكاة .

أجل ! سيبقى الناس متفاوتين في أرزاقهم ، بعضهم فوق بعض ، أو بعض دون
بعض ، فتلك سنة الحياة .

ومهما اجتهدنا في تعميم العدالة وتوزيع الخيرات فسيبقى من يستحقون الرحمة
والعطاء ، من يحيفُ عليهم الخطأ والنسوان ، أو من تبطئ بهم قدراتهم فيتعرضون
للعجز والعطل ..

ثم إنَّه لن تعم الناس حالة يستغون فيها لحظة عن رقابة الدين ويقظة الضمير .
مادامت منابع الظلم في شِيمِهم ، لا يدركها جفاف !!

ومن هنا فلابد من توصية القادرين على الضعف ، والمتبعين على الأتباع . وما
يخلو مجتمع بشري من هذه الصفات المتناقضة .

لكن إرصاد الأدوية للعلل المرتبطة لا يعني تشجيع الأوبئة على الانتشار ..
ونحن نلحظ في بلاد الإسلام ميلاً مجنوناً لدى بعض الناس كي يغتنى من ألف
طريق دون اكتراش بحلال أو حرام .

وميلاً أشد إلى استبقاء جم غفير من الخلائق يحيون على الفتات .
ويلازمون المسكنة .

وهذا مانكره باسم الله .

الصّراع بين الخير والشر

تضارف نصوص الدين الصريحة ، وقواعد العامة ، على تحقيق وحدة الأمة في ظل الإيمان الصادق والعدالة الشاملة .

ونستطيع أن نرى مصداق ذلك نصوصاً في آيات القرآن الكريم وتطبيقاً في عهد الخلافة الراشدة ، التي يصح اعتبارها امتداداً لعهد النبوة في فترات متقطعة تومض خلال ليل طويل .

أما مراحل التاريخ الإسلامي بعد ذلك ، فإن بعض نظم الحكم لم تكن وفق مثل الإسلام العليا ، قد تقترب منها قليلاً فتستريح الأم وتهداً أنفاسها ، وقد تبتعد فتصاب الجماهير بالغنة .

وربما كان المسلمون في ظل دينهم أحسن من غيرهم حالاً إلا أن ابتعاد الدين الصحيح عن الحكم في بعض الفترات ترك أثره في الأمة فقد اكتنفتها فتن مزعجة ومظالم دامية .

وعملت هذه السياسات الغاشمة عملها في بعض الفترات ، لكن تصرف المسلمين عن لباب دينهم ، وتشغلهم بقشور خفيفة الوزن من تعاليمه ؛ فأصبح علمهم بدينهم يكاد لا يتعدي الزبد الذي يذهب جفاء .

أما الحقيقة الخالدة التي تنفع الناس وتعمّر بها أخلاقهم فقد فرطوا فيها .

وإن كان القرآن نفسه بقى ناطقاً بالحق شاهداً به على منْ هَجَرَهُ من الناس ! .

وإذا كان التاريخ قد خط لنظام الطبقى سجلاً حافلاً بهمازل الشرف المزعوم ، ومساخر النبل الموهوم ، فقد جاء الكتاب الكريم بعرض مستفيض ، لما ردد القوم من أكاذيب ، وما كبر في نفوسهم من أباطيل ، ثم أخذ يكشف خبائها ، ويفضح زيفها .

حتى لتكلاد تلمس في ثنايا الآيات أنفاس ما انهدم من نظام الطبقات وتسمع عند تلاوتها آخر ما أرسلت النورة الكاذبة من أنفاس قبل أن تفترسها قوى الخير - وهي في طريقها إلى الأرض - حاملة نور السماء ! .

ولابد من كلمة تشرح جرثومة هذا النظام ، السرف في المعيشة تجاوز الحد في النفقة وإجابة مطالب النفس كلها .

والترف إلـف هذه المعيشة الناعمة ، واستدامة عناصرها ومظاهرها ، والضجر لـتـختلف شيئاً منها لأنـ التنـعم أـصـبح عـادـة مـسـتـحـكـمة ..

ويـبـدوـ أنـ المـرـءـ عـنـدـمـاـ يـأـلـفـ مـسـتـوـيـ خـاصـاـ مـنـ الـحـيـاـةـ الـرـضـيـةـ يـفـقـدـ لـذـةـ الـإـحـسـاسـ بـهـاـ ،ـ وـقـدـ نـسـخـطـ مـاـيـعـدـهـ الـآـخـرـونـ أـمـلـاـ لـهـمـ بـعـيدـ الـمـنـالـ ..

وـذـاكـ سـرـ قـولـ الرـافـعـيـ :ـ إـنـ اللـهـ أـخـذـ اللـذـةـ مـنـ أـفـوـاهـ الـأـغـنـيـاءـ فـوـضـعـهـاـ فـيـ عـيـونـ الـفـقـرـاءـ ..

ويـبـدوـ كـذـلـكـ أـنـ هـذـاـ هـوـ السـرـ فـيـ تـقـلـبـ حـيـاـةـ الرـسـوـلـ ﷺـ بـيـنـ الـضـرـاءـ وـالـسـرـاءـ ،ـ فـقـدـ رـوـىـ أـنـ الـمـعـيـشـةـ الـرـغـدـةـ عـرـضـتـ عـلـيـهـ ،ـ وـأـنـ خـيـرـ بـيـنـ اـمـتـلـاـكـ الـقـنـاطـيرـ الـمـقـنـطـرـةـ مـنـ الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ وـبـيـنـ حـيـاـةـ الـكـفـافـ ،ـ فـأـثـرـ أـنـ يـكـابـدـ الـحـيـاـةـ عـلـىـ لـوـنـيـهـاـ ،ـ وـقـالـ :ـ يـاـرـبـ أـجـوـعـ يـوـمـاـ فـأـذـكـرـكـ وـأـشـبـعـ يـوـمـاـ فـأـشـكـرـكـ !! ..

ولـنـدـعـ سـيـرـةـ الـأـنـبـيـاءـ فـيـ مـسـتـوـاـهـ الـأـشـمـ لـنـقـولـ :ـ إـنـ الـتـرـفـ يـفـسـدـ ذـوقـ الـفـرـدـ وـحـكـمـهـ ،ـ وـإـنـ إـذـاـ شـاعـ فـيـ أـمـةـ أـصـابـهـ بـبـلـاـيـاـ جـمـةـ ..

فـالـمـتـرـفـونـ يـكـاثـرـونـ غـيـرـهـمـ بـالـفـضـولـ التـىـ يـجـمـعـونـهـاـ ،ـ وـيـتـنـافـسـونـ بـيـنـهـمـ فـيـ اـصـطـيـادـ الـمـتـعـ ،ـ وـيـقـبـلـونـ عـلـىـ الـدـنـيـاـ بـنـهـمـةـ لـاـتـنـتـهـىـ ،ـ وـهـذـاـ كـلـهـ يـقـعـ عـلـىـ حـسـابـ الـحـقـ وـالـخـيـرـ ،ـ وـمـطـالـبـ الـإـيمـانـ وـحـدـودـ اللـهـ ..

وـقـدـ كـشـفـ الـقـرـآنـ عـنـ طـبـيـعـةـ مـجـالـسـهـمـ التـىـ يـشـيـعـ فـيـهـاـ الـلـغـوـ وـالـطـعـنـ وـتـنـاـولـ الـآـخـرـينـ بـاـ يـسـوـءـ :ـ ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّزْةٍ ﴾ (١) الـذـيـ جـمـعـ مـالـاـ وـعـدـدـهـ (٢) يـحـسـبـ أـنـ مـالـهـ أـخـلـدـهـ (٣) كـلـاـ لـيـنـبـذـنـ فـيـ الـحـطـمـةـ ﴿ (٤) ..

وـالـمـتـرـفـونـ يـزـدـرـونـ نـعـمـ اللـهـ عـنـهـمـ ،ـ وـتـغـرـيـهـمـ كـثـرـتـهـاـ بـاـبـتـذـالـهـاـ ،ـ وـقـلـةـ شـكـرـ اللـهـ عـلـيـهـاـ ،ـ وـإـرـاقـتـهـاـ فـيـمـاـ لـاـجـدـوـيـهـمـ ،ـ وـالـضـنـ بـهـاـ عـلـىـ مـنـ يـحـتـاجـونـ إـلـيـهـاـ ،ـ وـلـعـلـ ذـلـكـ هـوـ السـبـبـ فـيـ جـعـلـهـمـ خـلـاـصـةـ أـهـلـ النـارـ ﴿ وـأـصـحـابـ الشـمـالـ مـاـ أـصـحـابـ الشـمـالـ ﴾ (٥) فـيـ سـمـوـمـ وـحـمـيـمـ (٦) وـظـلـلـ مـنـ يـحـمـوـمـ (٧) لـاـ بـارـدـ وـلـاـ كـرـيـمـ (٨) إـنـهـمـ كـانـوـاـ قـبـلـ ذـلـكـ مـُـتـرـفـينـ ﴿ (٩) ..

(١) سـوـرـةـ الـهـمـزـةـ آـيـةـ ٤ـ -ـ ١ـ ..

(٢) سـوـرـةـ الـوـاقـعـةـ آـيـةـ ٤١ـ -ـ ٤٥ـ ..

والمتأمل في حياة المترفين يجد أن حرصهم على ماهم فيه يغريهم بطلب المال من كل وجه ، حل أو حرم ، ذاك لا يهم . المهم هو كيف تستدام هذه المتع وتيسّر أسبابها ولو على أنفاس المغضوبين والمحرومين .

ثم هم يعبدون هذه الدنيا التي انغمستوا في فتنها وذاقوا حلاوتها ، ومن هنا فقلما ينهمضون إلى نصرة حق أو الدفاع عن عقيدة ، أو التضحية من أجل مبدأ كريم .

ولقد خشى النبي ﷺ أن تنغمس أمته في الترف ، فتصرّفها شهوات الدنيا عن رسالتها وتتهاوى بها في موارد الردى .

وكان يحس أن الأزمات التي تمر بال المسلمين طارئة ، وأن الدين الحق سيهزم العوائق التي تعترضه ، وأن أتباعه المطاردين اليوم سيكونون رءوس الناس غداً فخطب يحذر المسلمين أن يفتتنوا بسعة الغنى وكثرة المال .

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : إن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله فقال : «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُم مِّنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا !» .
قال رجل : يارسول الله ، أَوْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟!» .

فُسْكَتُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ لَهُ لِلرَّجُلِ «مَا شَأْنُكَ؟ تَكَلَّمُ النَّبِيِّ وَلَا يَكْلُمُكَ؟!» فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يَنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فَمُسْحَعٌ عَنْهُ الرَّحْضَاءُ^(١) فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ؟ - وَكَانَهُ حَمْدَهُ - فَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنَّمَا يَنْبَتُ الرَّبِيعُ مَا يُقْتَلُ أَوْ يُلْمَ^(٢) إِلَّا أَكْلَهُ الْخَضْرَاءُ^(٣) حَتَّى إِذَا امْتَدَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَنَلَطَتْ وَيَالَتْ^(٤) وَرَتَعَتْ.

وإن هذا المال خصمة حلوة فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل» أو كما قال النبي ﷺ «وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع ويكون شهيداً عليه يوم القيمة»^(٥).

(١) العرق الذى يتسبب منه عند الوحي .

(٢) يعني أن الدابة قد يغريها الزرع الزاهر ، فلا تزال تلتهم منه حتى تصاب بالتخمة فإذا أهلكها الشهء ، وإنما أقارب الـ (٣) الدابة التي ترعى القليل وتهضممه وترمى فضلاته هي التي تنمو وتصبح .

(٥) م: حديث مطول . . صحيح - آخر جه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي في سننه وابن ماجه تحت رقم

٢٣١٧ صحيح الجامع عن أبي سعيد الخدري .

وهذا الحديث يرشد إلى أن التصرف الحسن في المال هو مناط النفع به ، فالمال خير لأنه يصون بدن الإنسان وكرامته ، ويحفظ عرضه ومرؤته .

وهو عندما يكتسب من حق ، وينفق في وجوهه الصحيحة لا يندم أبداً ، بل إن كسبه - والحالة هذه - جهاد ، وإن إنفاقه لعبادة ..

إن الأرض تزين بالربيع ، وتضحي معه وارفة الظلل دانية الشمر .. والعاقل ينال من هذا الربيع ما يكفي حاجته ويحسن هضمه ، أما إذا أقبل مسحوراً على ما أمامه يجري وراء كل رغبة ، ويتناول كل ما يتيسر أخذه ، فقد يصبح كالدابة التي تستحلى الأكل ، فما تزال تقضم وتبلغ حتى يكتظ جوفها بما لا تطيق ، وكم في الناس من أشباه لهذه الدواب ! يجمعون ما لا يتقون الله في تحصيله ، ويركمون من ثرواتهم حولهم مثلما تنسج دود القرز حول نفسها ، فما تزال تكثر الخيوط حتى يكون نسيجها مقبرتها .. !

ولو أن شرور المترفين تلحقهم وحدهم لجاز تركهم وما يصنعون بأنفسهم ، ولكن الأمم يلحقها بلاء عظيم من ظهور هذه الطبقات واستقرارها ، ومن تكون أوضاع عامة تسلط هذه الطبقات على سائر الأمة مهما كان نصيبها تافها من التقوى والذكاء .

إن الأمم يجب أن تسير وفق ضوابط الإيمان والخلق ، وأن تولى وجهها شطر أهداف رفيعة ، وألا تسمح لنوازع الهوى والجحود أن تميل بها وراء كبراء سفهاء .

ولهؤلاء الأكابر المجرمين منطق خاص في الحكم على الأمور فربما أبغضوا أحكام الرسائل وأجدرها بالاتباع لا لشيء إلا لأن الفقراء سارعوا إلى اعتناقه ، وما دام الفقراء قد اقتربوا من الحق فقد شاه وجه الحق وساء طريقه !

وقد حكى القرآن الكريم هذا المنطق :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْلُكٌ قَدِيمٌ ﴾ (١)

فإذا فرض الحق نفسه على الحياة الواقع قالوا : لا بأس به على شرط أن يجيئنا مثله فلا يكون أحد أفضل من أحد !

إن نظرتهم إلى المبادئ وأصحابها من خلال زاوية واحدة هي مكانتهم وعصبيتهم .

(1) سورة الأحقاف آية ١١

سئل أبو جهل : ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاهلنا على الركب ، وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتنى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه !

وحدث أن أبا جهل صافح النبي - عليه الصلاة والسلام - فقال له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابئ ؟ فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم إنه لنبى ولكن متى كنا لبى عبد مناف تبعاً ؟

إنه كفر جحود واستكبار فلا غرو إذا قال الله في جزائهم : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَفَّارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (١).

عيوب هؤلاء أن تفكيرهم مادي حيواني . الأكثر مالاً والأشد قوة هو الأجدر بالحياة والصدارة ، ويستحيل أن يقوم على ذلك مجتمع أو تنفس حضارة .

القرآن والطبقات المترفة :

لذلك يرى القرآن وجود الطبقات المترفة ، خطراً داهماً لا يفتأ يتهدّد الحياة الإنسانية ، ويملاً مستقبلها بالغيوم والرّجوم .

ويرى أن تأمين الشعوب على سعادتها وحقها ، يتطلب اتخاذ الوسائل الممكنة ، للحيلولة دون الترف والترفين .

وقد ذكر القرآن عدة أسباب لتسویغ هذه الخطة الخامسة :

أولاً : يقرر القرآن أن المترفين أعداء كل إصلاح ، وأنهم خصوم الحق المتألبون ضده في كل زمان ومكان ، تكاد لاتنتبه دعوة للحق والشرف حتى ينأوا عنها مُتّخذين نحوها صفة أحزاب « المعارضة » ...

المعارضة الخسيسة التي ت يريد أن تكتب حديث الخير والعدل بحديث الشروة والمال ، وتهجر مطالب العقل ، المتطلع إلى الهدى ، إلى مطالب الجوف المتكلب على الشهوات ، وتهبط بطموح الروح إلى الحرية والكمال إلى حضيض المادة المتعلقة بالرفاهية الناعمة ، والجمود البليد .

(١) الأنعام : ١٢٤ .

ومن هنا وجّه إليهم القرآن اتهاماً عاماً . وألحق بهم وصفاً ثابتاً فقال :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرْفُوهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْذَبِينَ ﴾ (١) .

وهكذا ندد القرآن ب موقف هذه الفئة المتعالية واعتدادها المنكر بما تملك من متاع ، واستحمق تفكيرها الذي يربط مجد الدنيا وسعادة الآخرة بكثرة الأموال والأولاد ، ثم استتبّل يرد عليهم شارحاً الطريق الصحيح للعظمة الإنسانية ، وهو العمل الصالح والخلق الرضي لا البطر بما أتيح للمرء من أسباب القوة .

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُرْقِبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مِنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (٢) .

وقد فَصَّلَ القرآن في كثير من سوره ، موقف الطبقات المترفة ، تجاه كل كتاب منزل وكلنبي مرسلاً ، فكان التكذيب واحداً للدين الواحد الذي بعث الله به أنبياءه من لدن نوح - عليه السلام - إلى خاتم النبيين محمد - صلوات الله عليه وسلمه - .

وما يشير العجب تشابه الرد الذي انتظم على ألسنتهم جميعاً حتى لتكلّد تجزم بأنهم يشعرون بعاطفة واحدة ، ويدافعون عن مصلحة واحدة .

في نوح ورسالته وأتباعه يقص القرآن هذا الرد :

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بِأَدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ إِلَّا نَظُنُّكُمْ كَادِبِينَ ﴾ (٣) .

وفي رسالة هود : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلَقَاءَ الْآخِرَةِ وَأَتَرْفَنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرُبُ مِمَّا تَشْرُبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَّا سِرُونَ ﴾ (٤) .

(١) سورة سباء آية ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) سورة سباء آية ٣٧ .

(٣) سورة هود آية ٢٧ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٣٣ ، ٣٤ .

وفي رسالة صالح :

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لَمْ آمِنْ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَاحِلًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾٧٥﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾١﴾ .^(١)

وفي رسالة شعيب : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيْتَنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتَنَا﴾ .^(٢)

وفي رسالة موسى وهارون إلى فرعون وملئه : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِيًّا فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾٤٧﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهَلَّكِينَ﴾ .^(٣)

وقد رأيت في رسالة محمد - صلوات الله عليه وسلم - كيف صاق المشركون
ذرعاً بالقرآن ، لأنه لم ينزل على رجل من القرتيين عظيم !!

وكيف استهانوا بمن آمن به حتى قالوا : ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ .^(٤)

وكيف أخرجوهم من قريتهم ، وحاربوهم في مهاجرهم :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .^(٥)

ورسالات الإيمان والإصلاح ، التي حمل لواءها الأنبياء ، تهدف إلى المساواة بين الناس ، أمام الله واحد ، يدين له الجميع بالطاعة ، ويتصدّع الجميع بما يأمر به وينهى عنه ثم يساهم الجميع - على سواء - في إقامة صروح العدالة والفضيلة والدفاع عنها .

ولكن الذين ورثوا الجاه والتسلط والعدوان أو حصلوا على ذلك بالوسائل الملتوية التي ما يعرف الطغاة غيرها ! لكن هؤلاء الذين ظنوا أنفسهم من دم آخر ، ومردوا على

(١) سورة الأعراف آية ٧٥، ٧٦.

(٢) سورة الأعراف آية ٨٨.

(٣) سورة المؤمنون آية ٤٦، ٤٧، ٤٨.

(٤) سورة الأحقاف آية ١١.

(٥) سورة البقرة آية ١٣.

الترف والغرور والانتفاخ . رفضوا أن يتقىدوا خطوة في هذه السبيل ؛ حتى ذكر القرآن في معرض الأسف والغضب هذه الحال المنكرة :

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مَمَّنْ أَجْحِنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِّكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلَحُونَ (١)﴾

ولم يستثن القرآن من الرسائلات التي لاقت هذا العنط ، إلا رسالة يونس ولعل قريته خلت من هؤلاء المترفين الموعقين إلى حين .

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَّةٌ آمَنَتْ فَفَعَاهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسٌ لَمَّا آمَنُوا كَشَفَنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَعَنَّاهُمْ إِلَى حِينٍ (٢)﴾

* * *

ثانياً : يقرر القرآن أن الطبقات المترفة ، مصدر فساد عريض ، ومثار فتن متتجدة ، وأنها - بجوار غيرها من طبقات الأمة - تشبه المستنقع الراكد ، لا تزال تهيج منه جراثيم المرض ، وتبعثر منه رواح الحمى ..

فإما تدارك المصلحون الأمر فردموا المستنقع واستراحوا منه ، وإما بقى على حاله فاسداً مفسداً حتى يعم الوباء ، ويستشرى الخطر وتصاب الأمة بالفناء العاجل ، يلحق كيانها ، ويحطّم أركانها .

إن أساس التأخر وسبب الدمار الذي يصيب الأوطان والشعوب ؛ هو من هذه الطبقات .

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرِيَّةً أَمْرَنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا (٣)﴾

ومرجع ذلك إلى أن حياة الترف ، تحول دائمًا عن مشاغل العمل وأسباب الكفاح ، ولا يتسع الميدان فيها إلا للبطالة واللهو .

(٢) سورة الإسراء آية ١٦ .

(٢) سورة يونس آية ٩٨ .

(١) سورة هود آية ١١٦ ، ١١٧ .

وطبيعة الشهوات الإنسانية أنها إذا لم تجد حدوداً تقف عندها ، طفت بأصحابها ،
وسخرت قواهم للأغراض الدينية .

فإذا كان الحكم يكاد لا يتجاوز حدود هذه البيئات ، فماذا تكون حال الأمة التي
تنكب به؟! .

إن عدوى الفساد الخلقي والاجتماعي والسياسي ، تهبط من أعلى إلى أسفل
وتكون دائرة محكمة من التقاليد الباغية ، والمظاهر الفارغة .

فإذا استطاع فرد أو أفراد طبقة أخرى - بجهدهم وسعدهم - أن يكتسبوا من المال
والجاه ما يخرجهم عن حدود الطبقات التي خرجموا منها ، وينظمهم في عداد المترفين
السعداء ، فإن مسلكهم العملى ينسجم أمّ الانجسام مع مقتضيات حياة الترف الجديدة
وتقاليد المترفين ، ذلك أنهم ينكرون - على مر الأيام - لنشأتهم الأولى ، فلا ينتظرون
منهم إلا أسوأ ما ينتظرون من شركائهم المترفين .

ولهذه الشهوات الحمراء وقودها الذي تشتعل به ، ولن يكون هذا الوقود إلا حطام
الطبقات البائسة ، بعد أن يراق دمها ، ويستنزف جهدها ، ويجف عودها ، ثم يرمى بها
في أتون المطامع والمظالم ، لكي ينعم منْ ينعم ، ويستريح منْ يستريح .

ومن ثمَّ فليس أبغض لدى كثير من الفاسقين الذين أهلّكهم الترف من كل دعوة
توقف الغافلين ، وتقيم القاعدين ، وتوجه أصحاب الحق إلى حقهم .

وليس أحب إلى قلوبهم من أن تبقى الشعوب جاهلة ، لأن العلم ينير لها طريق
النجاة .

وليس أحب إلى قلوبهم من أن تبقى الأمة مريضة ، لأن القوة تخلق روح النقد
والتحير ، والصحة توحى بالأمل وتغرس بالنشاط .

وليس أحب إلى قلوبهم من أن تبقى الأمة فقيرة ، لأن ثمرة عملها - إن كان لها ثمرة
عمل - لا يبقى منه فضل يتسع للبذخ والسرف ، أو يسمح بالاطمئنان إلى الترف .
وقد صدق من قال : « ما رأيت إسراً إلا وإلى جانبه حق مُضيئ » .

وعندما تكون الشعوب بهذه المثابة ، تسقط من أول ضربة يتناولها بها الاستعمار
الخارجي ، وتلك هي علة العلل فيما أصاب الشرق أخيراً من انهيار وانحطاط .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيمْكِرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكِرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(١) .

* * *

وقد أدرك المستعمرون هذه الحقيقة ، فمهدوالباقائهم فى البلاد التى احتلواها بإنماء نظام الطبقات ، وضمنوا للمترفين ما تصبو إليه شهواتهم ، من حياة رغدة وتركوا كتل الشعب الكبرى يوج بعضها فى بعض ، تطلب الضرورات الأولى للجسم والنفس والعقل ، فلا تجد من ذلك إلا جرعات ، تسكن ثورانها أن ينفجر ، أو تبقى للعبيد الرمق الذى يحيون به لخدمة السادة . . . فحسب ! .

* * *

ثالثاً : ويقرر القرآن أن المترفين أعداء الشعوب ، وأن على الشعوب التى تريد الحياة الكريمة فى الدنيا ، والحياة السعيدة فى الآخرة ، ألا تُوالى هؤلاء الطغاة ، وأن تأبى الدخول فى طاعتهم ، والإذعان لأوامدهم ، وإلا كان مصيرهم مصير القائلين :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءِنَا فَأَضْلَلُنَا السَّبِيلُ ^(٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعِنْمُ لَعْنَا كَبِيرًا ﴾ ^(٢) .

ذلك أن عقلية هؤلاء المترفين ، تقوم على زعم كاذب ، بأن ميراث الأرض ، وخيرات الدنيا ، وتصريف الأمور ؛ كل أولئك ليس إلا احتكاراً لهم ووقفاً عليهم - اختصوا به لأمر يجهله الناس - وأنه ليس على الناس إلا أن يسمعوا ويطيعوا ، وأن يقدموا لهم أنفسهم وأموالهم وحرياتهم وحقوقهم طائعين .

إذا حدثت أحداً نفسه بغير ذلك ، فهو حقيق أن ينفى من الأرض التى عصى أمر سادتها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرَسُولِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مَلَكَتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ^(٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ^(٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَارٍ عَنِيدٍ ^(٥) .

(٢) سورة الأحزاب آية ٦٧ ، ٦٨ .

(١) سورة الأنعام آية ١٢٣ .

(٣) سورة إبراهيم آية ١٣ - ١٥ .

بل إن هؤلاء القوم ليحسبون أن دعوات الإصلاح والعدالة ، ليست إلا ستاراً ،
يختفى وراءه الطمع في انتزاع ما يستمتعون به من سلطان .

فكل صيحة تنادى بالإصلاح الاقتصادي ، والعدالة الاجتماعية ، وتتيح لأبناء الأمة أقساماً متساوية من الحياة الصحيحة ، وتجعل الناس لا يذلون إلا لبارئهم وحده ، تعتبر في عرف هؤلاء الطغاة وفهمهم ، صيحة لمنازعتهم السلطة ، ومشاركتهم الدولة ، ومقاسمتهم الثروة ، يتذبذب في صدورهم - بعد سماعها - منطق المستكبرين من آل فرعون عندما قال موسى :

﴿أَجَئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكُبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١) .

مثل هذه العقلية الجامدة على موروثاتها ، المستهينة بحق غيرها في الحياة الصحيحة ، لا يجوز أن تلقى من الشعوب إلا النبذ والاحتقار .

فإذا سول الشيطان لبعض الأذلاء المتملقين ، أن يعيشوا الهؤلاء أتباعاً يأكلون على موائدهم ، ويدفعون عن مبادئهم . فهم مع من ارتبطوا بهم في الدنيا والآخرة لكل خزي يتبعه خزي ، وعذاب يلحقه عذاب :

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الْمُضْعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٢) .

* * *

هذه أسباب - أجملناها - لرأى القرآن في الطبقات المترفة ! .

ونحن حين نرسل نظارات خاطفة إلى تاريخنا الطويل ، نجزم بأن قوى الشر قد انتصرت في كثير من الأعصار والأمصار .

ونرى أن الطبقات المترفة (حتى لو اتسمت بالشورية والتقدمية) لم تثبت أن استعادت سلطانها ، الذي أفقدتها الإسلام إياه ، يوم أن كان الوحي غضاً فتياً ، ويوم أن كان الحق عزيزاً بجنته وأنصاره ..

(٢) سورة إبراهيم آية ٢١ .

(١) سورة يونس آية ٧٨ .

فلما انتقلت مقاليد الأمور إلى عبيد الشهوات ، وجلادي الشعوب من المترفين الثورين وغيرهم ، وقف سير الحضارة العادلة الرشيدة ، بل تراجعت تراجعاً آلباً في نواحٍ كثيرة .

ولو استقرْأنا أحوال أمتنا في كثير من الأحباب ، لراغبنا الصرّاع الصامت العنيف بين الحق والباطل ، وبين الظلم والعدل ، وبين الشورى والاستبداد ولراغبنا أنّ حساب الأرباح في بعض العصور ضئيل ، وأنّ حساب الخسائر سَيْلٌ لا آخر له ولراغبنا أدلة واقعية تزاحم أمامنا ، شاهد عدل على أن الأم التي تسلم زمامها للمترفين من أبنائها إنما تسلم عنقها لجزار أثيم .

قصاراه - إزاء الشعب - أن يذكر الله وهو يذبح الناس .

وعلى ضوء هذا الدرس المؤسف : يجب أن نفك طويلاً .. إذا أردنا الحياة الوعية الرشيدة ، ويجب أن نعزم على اتخاذ كل الوسائل التي تقيم الموازين القسط بين طبقات الأمة ، وأن نغلق الباب إلى الأبد ، في وجوه المتعطلين والمنتهزين .

ذكر إن نفعت الذكري

تأتى على الأم فترات تنسى فيها مُثلها العليا ، وتعنى بخسائر الحياة ، وتوافهاها ، ويتوجه نشاطها العقلى والاجتماعى إلى اللغو واللهو .

هذه الفترات ك ساعات الإغماء للإنسان الحى ، أو ك ساعات الذهول للعقل المفكر !! إذا طالت كانت لها عواقبها الخطيرة ، بل إن أخطر ما يعترى الأم من انتكاسات وهزائم ، إنما يبدأ في هذه الفترات الطائشة .

وقد أتى على الأمة الإسلامية عصر بل أعصار ، كان ساستها وقادتها لأشغل لهم إلا البحث عن اللذائذ ، والجرى خلف الشهوات ، وإشباع النزوات الدينية ، بفنون من العبث والمجون ! .

وولدت جراثيم الانحلال في جسم الأمة يومئذ ، ثم مشت في دمها . ولم تزل بها حتى أوردتتها سوء المصير .

وكان الشعراً المرتّزقون كالصحفيين المأجورين في هذا العصر ، يتملقون الطبقات المترفة ، ويصفون حفلاتها الماجنة وصفاً مغرياً ، ويستكتون سكوت المقابر عن وصف حالة الشعب ، وتصوير بأسائه وضرائه ، لأن الثمن كان يغدق عليهم إغداقاً من دوائر المال الكبرى ، ومن المصاريف السرية ، ومن طوائف الكبراء المنتفخين ! .

وبلغ فجور بعض الشعراء في العصر الأندلسي ، أنه ألف شعراً أنطق به الحمام في أغصانها وجعل أنغامه مشابهة لهديله! فقال :

إن الحمام بـأيـكـها تـشـدو
هـلـ قـدـ عـلـمـ أوـ قـدـ عـهـدـ أوـ كـانـ؟
كـالـمـعـتـصـمـ وـالـمـعـتـضـدـ مـلـكـانـ؟

وهكذا أنطقوا الحمام - وهو رسول السلام - بـمـدـحـ أـقـوـامـ كانوا حـربـاـ علىـ مـسـتـقـبـلـهاـ ، وـعـلـةـ أـصـيـلـةـ فـيـ الـهـزـائـمـ الـمـتـلـاـحـقـةـ الشـنـيـعـةـ .. الـتـىـ سـحـقـتـ دـوـلـةـ الـأـنـدـلـسـ . وـمـحـتـ معـالـمـهـ مـحـوـاـ لـاـ نـظـيرـ لـهـ فـيـ التـارـيـخـ! .

وـالـمـعـتـصـمـ وـالـمـعـتـضـدـ اللـذـانـ وـرـدـ ذـكـرـهـماـ فـيـ هـذـاـ المـدـحـ الـفـرـيدـ ، قـدـ تـنـاـوـلـهـمـاـ شـاعـرـ آـخـرـ منـ حـكـمـاءـ الـشـعـرـ الـبـصـرـاءـ بـأـقـدـارـ الـرـجـالـ ، وـسـيـاسـاتـ الـدـوـلـ ، فـذـكـرـهـماـ فـيـ مـعـرـضـ السـخـرـيـةـ وـالـأـزـدـرـاءـ . وـقـالـ :

ما يـزـهـدـنـىـ فـيـ أـرـضـ أـنـدـلـسـ
أـلـقـابـ مـعـتـصـمـ فـيـهـاـ وـمـعـتـضـدـ
أـلـقـابـ مـلـكـةـ فـيـ غـيرـ مـوـضـعـهـاـ
وـمـاـ أـحـوـجـنـاـ وـالـعـظـةـ حـافـلـةـ فـيـ مـاـضـيـنـاـ الـحـافـلـ .ـ أـنـ نـحـشـدـ الـأـقـلـامـ وـالـأـلـسـنـةـ لـتـعـلـنـ
عـلـىـ الـمـتـرـفـينـ حـربـاـ لـاـ تـنـتـهـىـ حـتـىـ يـنـتـهـوـاـ .

فلـنـ تـقـوـمـ فـيـ الشـرـقـ دـوـلـةـ عـادـلـةـ ، وـفـيـهـاـ مـتـرـفـونـ فـاسـقـونـ غـافـلـوـنـ!ـ وـلـنـ تـبـقـىـ آـمـنـةـ مـنـ
الـنـكـسـاتـ الـمـذـوـرـةـ مـاـ بـقـىـ لـهـؤـلـاءـ الـمـتـرـفـينـ أـذـنـابـ مـرـوـجـونـ ، وـصـحـفـيـوـنـ مـأـجـوـرـوـنـ .ـ وـشـعـرـاءـ مـرـتـزـقـوـنـ .

* * *

إن حرية التملك⁽¹⁾ التي أباحها الإسلام تكتنفها قيود كثيرة ، وهي قيود قوامها الأول ألا يصطاد المال من وجوه الريبة فضلاً عن أبواب السحت ..

وأغلب دعائم الترف التي رأيناها - إن لم تكن كلها - تقوم على هذه المصادر . ولو أن الحلال الحضر أثيل لأصحابه مجدًا جعلهم يعيشون متربفين لكان من حق الأم أن تحرس كيانها بمنع هذه الحال .. فإن الطوائف المترفة خطر مرهوب العقبى على مستقبل الشعوب .

(1) إن مجرد الغنى أو امتلاك المال ليس ترفاً فالترف مسلك معين وخلق محدد .. وقد كان الملك فيصل رحمة الله أغني من كل الثورين العرب .. وكان أطهراً وأنقي وأنقى وأزهد من أكثرهم إن لم يكن جميعهم .

هل للرّذائل أسباب اقتصادية؟

العقائد الدافعة إلى العمل الصالح والخلق الفاضل ، هي لُبَابُ الدِّين ، ومحور تعاليمه .

وغاية ما يصبو إليه الدين ، أن يجد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل . فإذا ضمننا هذا الجو الرَّحْب ، فقد أمكن الدين أن يحقق رسالته . وإلا فالدين لا يعدُّ أن يكون بضاعةً تُباع للناس في بطون الكتب ، أو كلامًا تنقله طائفة من الرجال في حلقات الوعظ ، وخطب المنابر لا يشمر غير التوجيه النظري .

ويكون الدين حينئذ موجوداً على هامش الحياة فقط .

وقد رأيت بعد تجارب عدة ، أنتى لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجلوّ الملايم لغرس العقائد العظيمة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة !! .

إنه من العسير جداً أن تملأ قلب إنسان بالهدى ، إذا كانت معدّته خالية أو أن تكسوه بلباس التقوى ، إذا كان بدنـه عارياً .

إنَّه يُجُبُّ أَنْ يُؤْمِنَ عَلَى ضَرُورَاتِهِ الَّتِي تَقْيِيمُ أَوْدَهُ كِإِنْسَانٍ، ثُمَّ يُنْتَظِرُ بَعْدَهُ، أَنْ تَسْتَمِسَّكُ فِي نَفْسِهِ مَبَادِئُ الْإِيمَانِ.

كثيراً ما وجدتني أعالج وَعْظ الناس في بيئات صرّعها الفقر والمرض والجهل .
فكنت أهار .. ماذا أقول لهم !!؟

هل أَفَبَحَ لَهُمُ الدِّينَ ، كَمَا يَظْنُ أَنَّهُ مُفْرُوضٌ عَلَى عُلَمَاءِ الدِّينِ؟ ! .

إن الدنيا لن تكون أقبح مما هي عليه في أعين هؤلاء التعساء .

و حاجتهم إلى من يعرّفهم أركان الحياة ، أمسّ من حاجتهم إلى من يعرّفهم أركان الإسلام ..

وجمهورهم لا يدرى الأسلوب الصحيحة للزراعة والصناعة والتجارة .. فضلاً عن
أن يعرف كيف يعامل ربه وإخوانه و... حكامه!

أعْرَفُهُمْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ .. إِنْ مَعْرِفَةَ اللَّهِ لَا سَبِيلٌ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدِ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ ، فَإِنْ
مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ .

وهو لاء التُّعسَاء مذهولون عن أنفسهم ، تائرون عن حاضرهم :
إن الشعور بالهوان والحرمان ، قد شلَّ تفكيرهم ، فائِنَّ يعرفون ربَّهم ؛ أو يشعرون بما قد قدموه ؟

إنهم أعجز من أن يقدموا الحساب عن يومهم ، فهيهات أن يأخذوا الأبهة الحقة للدار الآخرة ؟ .

أنا لا أنكر أن وراء حنَّا ياهم الضامرة ، قلوبًا فيها إيمان ما ، وتدَّينٌ ما ، لكن قيمة هذا كلُّه تافهة ، لا تُجدي على أصحابها كثيرًا ، في الدنيا أو الآخرة .

والدين الحق لا يؤدى رسالته في هذا الجو الخانق ، ولا تثمر عقائده في هذه البيئات العقيمة .

فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع ، والإصلاح العمراني الشامل ، إذاً كنا مخلصين حقًا ، في محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم باسم الدين ، أو راغبين حقًا في هداية الناس لرب العالمين .

أما أن نترك الظروف التي تلد الجريمة حتمًا ، تنمو وتتكاثر ، ثم نكتفى في خدمة الدين بالنصائح المجردة ، والعواطف المفتعلة ، فهذا في الحقيقة هو العبثُ المبين .

ولست - هنا - أنكر قيمة الواجب الأدبي ، أو أحاول بحسنِ الضمير الإنساني حفه ، فقد توجد أحوال شديدة تقف الإنسان على شفا حُرْف هَار وتطلق فيه غرائزه الدنيا ، ويتضافر الحرمان والإغراء معاً على سُوقَ المرء إلى الجُرميَّة سوقًا عنيفًا ، ومع ذلك يتراجع عنها ، ويستنكف مقارفتها . وتنتصر موهابه العليا آخر النزاع .

غير أن هذه الأحوال لا يجوز انتظارها من كافة البشر ، بل لا يجوز انتظارها أبدًا على تطاول الأزمنة واختلاف الأحوال من إنسان يضيء الإيمان قلبه ، مهما بلغ فضله ، وربما علمه .

وخير لنا أن نتعرّف بالأمور من وقائع الدنيا ، وأن نقرّ أن النسبة الكبيرة من الرذائل تعود إلى واحد من الثالوث المتوطن في أرجاء أمتنا من زمن بعيد ، ثالوث الفقر والجهل والمرض ، أو إلى اثنين من هذا الثالوث البغيض ، أو إلى أفراده جمِيعاً .
وأن زوال هذه الآفات الإنسانية ، يخفّض نسبة الجرائم في بلادنا ٩٠٪ .

ونحن نعرف أن في مصرآلاًافاً من العلماء الذين ينتسبون إلى الدين وينبئون في معاهده ومساجده ، وينطلقون في المدائن والقرى يبشرون وينخطبون .

فهل وصلنا - بعد هذا المجهود المادى والأدبى الواسع - إلى درجة من الرقى ، والسلامة الاجتماعية ، كالتى وصلت إليها بعض الدوليات الأوروبية مثل سويسرا مثلا؟ كلا .. ! .

فشتان بين عدد الجرائم عندنا وعددتها عندهم .. !

وما أضخم القضايا التى تنظرها المحاكم عندنا ، من جنایات ، وجنح ، ومخالفات ! .
والعلة الأصلية فى هذا أن اختلال التوازن المادى والأدبى ، مكن لشياطين الإجرام أن تعمل وتنجح .

فكيف لا يتدخل الدين فى تغيير هذه الحال ، إن أراد لنفسه البقاء ، ولرسالته التحقيق؟!

بل كيف يستغل الدين لإبقاء هذه الحال المنكرة؟!! وهل معنى ذلك إلا أنه ينكر نفسه ويخفض رأسه ويحفر رمسمه !!
ولنضرب مثلاً ببعض الجرائم الشائعة لنرى مصداق ما قلنا .

السرقة :

جريدة خلقية واجتماعية كبيرة ، رتب عليها الدين عقوبة دنيوية ، تترواح بين قطع اليد ، وقطع العنق ، عندما تكون السرقة فى الخفاء ، أو عندما يكون صاحبها مدمى اختلاس أو عندما تكون السرقة غصباً بالإكراه كما يعبر القانون الحديث .

وعقاب كهذا ليست به شائبة قسوة مadam القصد من تنفيذه تأمين الحقوق ، وصيانة الجهود ، وتوجيه الناس إلى العيش من كسبهم الحلال ، لا السطط على كسب غيرهم ، والعيش به من حرام .

ولكن هذه الأغراض كلها تذوب فى مجتمعنا الذى يزخر بأسباب التملك الباطل ، ووسائل الاستغلال المريب ..

فإذا قامت حول الجريمة شبّهات ، تجعل العقاب لا يحقق هذه المصالح وجب وقفه .
وامتنعت إقامته .

ومن هنا أمر النبي - صلوات الله عليه وسلم - أن ندرا الحدود بال شبّهات .

وأمر عمر رضى الله عنه أن يعطل حد السرقة فى عام المجاعة!

ورأى أئمة الفقه أن دعوى الملك فى المسروق ، تمنع من الحد - مادامت شبهة الملك معتبرة! .



وقصد الشارع من وراء هذا الاحتياط ألا تقطع إلا اليد الظالمة الآثمة . يد اللص
المعتدى على حق غيره يسرقه ، غير قانع بما عنده ، وهو يكفيه ويغنيه .

وال مجرمون الذين يُعدُّون من هذا النوع قلائل .. بل إنهم يعدون على الأصابع من
بين الآلاف ، التي تقدم إلى المحاكم ..

روى مالك بن أنس في الموطأ أن رقيقاً لحاطب سرقوا ناقة لرجل من مزينة
فانتحروها ، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فأمر عمر كثير بن الصلت بقطع
أيديهم .. !!

ثم قال عمر : أراك تجيعهم؟! والله لأغرنك غرماً يشق عليك .

ثم قال للمزني : كم ثمن ناقتك؟ فقال : قد كنت - والله - أمنعها من أربعين ألف
درهم! . فقال عمر لحاطب : أعطه ثمانين ألف درهم .. !!

قال ابن وهب : إن عمر - بعد أن أمر كثير بن الصلت بقطع أيدي الذين سرقوا -
أرسل وراءه من يأتيه بهم (ليرفع الحد عنهم) .

فلما جيء بهم قال عبد الرحمن بن حاطب : لو لا أني أظنك تستعملونهم
وتجيرونهم حتى لو وجدوا ما حرم الله لا كلوه لقطعتهم .

ولكن والله إذ تركتهم لأغرنك غرامة توجعك .. !!

من هذا الأثر ترى أن عمر فهم تشريع القطع على حقيقته .

فهم أنه عقوبة رادعة لمن يرتكب هذه الجريمة من غير حاجة تلجمه إلى مال الغير .
و حين تبين له أن هؤلاء الغلمنان اضطروا إلى السرقة - لما نالهم من جوع و حرمان -
أبعد الحد عنهم .

وإذا أسقط الحد عن هؤلاء المرهقين ضاعف العقوبة على رب المال الذي أساء
الامتلاك ، وكان - بأثره - علة هذا الاضطراب في المجتمع .. !!

* * *

والاضطراب الاجتماعي الخطير في هذا الوادي ، هو الذي يضم بالخصوصية أقواماً ،
كان من الممكن ألا يوصموا بها قط ، ويبقى من اللخصوصية أقواماً ، كان ينبغي ألا
تنفك عنهم أبداً .

وما أكثر بلاد الإسلام التي يغلب عليها هذا الاضطراب والتناقض!

ولعل أيسر الأمور إقامة مجتمع تقلُّ فيه جرائم السرقة أو تختفى ، لا بالإرهاب والقطع والقتل ، ولكن بمنع الأسباب غير النفسية ، أى بمنع الأسباب المادية ، التى تُلْجِئ إلى السرقة فى أغلب الأحيان .

عندما تفتح أبواب العمل ، وتضبط مصادر الكسب ، وتحدد أسباب الملكية وقيمتها .

وعندما يعرف نور الحياة ونور العلم طريقه إلى المشردين من أبناء الأمة .

وعندما يحول تعطل الطبقات المترفة إلى عمل ، ونستثمر أموالها فى المشروعات التى يفيدون بها ويفيدون منها . . .

عندئذ تقل جرائم السرقة حقاً! ويومئذ يستحق السارقون أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف .

الزنا :

جريدة خُلُقية واجتماعية بالغة الفحش ، ولعل الاختلال الاقتصادي - بما يخلقه من بُؤس وترف - أهم الأسباب المؤدية إلى انتشار هذه الجريمة ، حتى نظم القانون^(١) العام وقوعها وأوقات ارتكابها ، ومع من ترتكب .

واعتبرت أسواق البغاء العلنى وحفلات الليالي الساورة ، من الأمور المعتادة للطبقات الصغيرة وللطبقات الكبيرة ، غير آبهين للصياح المختنق ، الذى يرسله رجال الدين ، بين الحين والحين .

ومواجهة هذه المشكلة لا تكون بالاستنكار السلبى ، فما أسهل هذا الاستنكار على متبعى الخطب الوعظية ، وما أحقر أثره فى تغيير الواقع الأثيم .

إن الشهوة الجنسية لابد أن تتحرك ، فإذا لم تتح لها الحركة الطيبة ، لم يبق أمامها غير الحركة الخبيثة .

والعصمة المؤقتة أو الدائمة عند بعض الرجال الفضلاء ، أو الرجال الهدائين لا يصح الالتفات إليها عند وضع تشريع عام يراد به حفظ عفاف الأمة ، وصيانة قوى الشباب المادية والأدبية والعقلية .

(١) صدر بعد ذلك قانون بتحريم البغاء ، ومع غض النظر عن النتائج المرتقبة لهذا التشريع القاصر ، ترى أن له بقية لم تأت بعد فهناك الحفلات الراقصة ، والسهرات العابثة والليالي الحمر ، وإلغاء قوانين البغاء لا يغنى عن إلغاء تقاليد البغاء ، فهى منه أخطر ، وهى فى أرجاء البلاد أشيع .

فإذا أردنا - باسم الدين - قمع الحركات الخبيثة الجنسية ، فيجب أن نيسر وأن ننظم أسباب الاتصال الجنسي الحلال ، وأن نفرغ من العمل على وضع الحلول الصحيحة لهذه المشكلة المعقدة ، ولن يكون إلا بإعادة النظر في فهم حقيقة الزواج ، والأساليب العسيرة ، التي يتم بها الآن .

إن إتاحة الزواج للراغبين مسألة لا تقل عن ضمان الأقوات للشعوب ، وعندى أن وزارة التموين لا تمثل إلا نصف المشكلة المادية وأن شئون الزواج والأسرة تحتاج إلى وزارة أخرى .

والطبقات الفقيرة والمتوسطة ، تواجه مع الزواج ثلاث مشكلات ، فالمهر عقبة ، وقد يسهل اجتيازها ، فتبقى مشكلة الدخل الذي يصون البيت الجديد والأسرة الناشئة ، ثم تبقى مشكلة الدخل الواسع ، الذي يكفل حياة أولاد تجب تغذيتهم وتربيتهم على خير وجه ..

هذه كلها عوائق اقتصادية ، لا يقوى الدين بالكلام على حلها .

إنما يفرغ الدين منها ، عندما يبني المجتمع ، الذي لا يبقى فيه فقير ولا حقير ، والذي يقدم للفرد الضمانات المعقولة ، لكافالة أسرته ، ورعاية مستقبلها والذي يسخر فيه إنتاج الأمة ، لإسعاد الأمة كلها ؛ لا لترف بضعة أفراد منها .

إذا تم ذلك ، تم القضاء على نسبة ضخمة من جرائم الزنا ، وإذا صودرت أسباب الترف لدى المترفين ، تم القضاء كذلك على جزء آخر من مظاهر الفسق والخلاعة والتحلل .

فمن أبى إلا ارتكاب الفاحشة بعد أن مهدنا له طريق الفضيلة ، وجب جلده أو رجمه . بل وجب قتله رمياً بالرصاص !

التعطل :

هو جريمة خلقية واجتماعية ، تصاب الأم من جرائها بشرّ مستطير . وقد نهى الدين عنه ، وووصى بأن يعمل المرء أى عمل يقيم أوده ، ويحفظ حياته وكرامته .

والتعطل نوعان : تعطل المترفين ، أصحاب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

وقد أشرنا إلى الأضرار الناجمة من ترك هؤلاء بلا عمل يشتغلون به ، والنكبات التي تصيب الشعوب والأمم من وراء بطلهم ! ..

ولما كان لابد من سد ذرائع للفساد ، وجب الحجر على هؤلاء السفهاء وضغط حرياتهم الشخصية ، حتى يتحولوا أفراداً منتجين ، وحتى تكون ثرواتهم المدخرة ، مصادر خير لهم ولغيرهم .

وهناك تعطل آخر منتشر بين الطبقات الفقيرة ، وينتظم الألوف المؤلفة من أبنائهما ، وتأوى إليه جرائم التسول والتشرد ، والفساد والعدوان .

وحاجة هؤلاء إلى العمل الشريف لاريب فيها ، وفائدة الدولة من استغلال هذه القوى المضيعة لاريب فيها كذلك .

وإنى لأظن تأثر الشرق الإسلامي يعود إلى التعطل الفاشى فى مختلف أقطاره ، وإلى القوى المهدمة التى حبسها الشلل فى جلود أصحابها فهم أحىاء أموات !! المفروض أن الإنسان عنصر من عناصر الإنتاج ، وأن ثمرة وجوده تبدو فى إثارة الأرض التى يعيش فوقها .

لكننا نرى الألوف المؤلفة مخلدين إلى الكسل لأنه لا عمل لهم ، ولا احتراف ..

وقد يكون بعضهم محزوناً حائراً لأنه يبحث عن مورد رزق فلا يجد ..

وقد يكون بعضهم قد تبلد لطول ما ألف البطالة .

وليس أتعجب من مجتمع تراق فيه الثروة البشرية على هذا النحو الشائن ، خصوصاً إذا كانت أرضه حافلة بالدفائن النفيسة التى يجب استخراجها مهما تكلفت من جهد ، وتطلبت من عون أو كانت الرقعة المزروعة يمكن زيادتها واستنبات الطيبات منها .

ومن الحماقة التهورى من مصيبة البطالة ، أو من آثارها المادية والمعنوية .

إن العمل الكثير المنظم يدارى فتوقاً كثيرة ، وإنى لأعتقد أن عورات النظام الشيوعى ما يسترها إلا العمل الدعوب الموصول الذى جندت له الجماهير وسيق له الرجال والنساء والشيوخ والولدان .

أما لدينا .. فجزء ضخم من الأمة لا يعمل !! ، وجزء أضخم من صاحبه يعمل أقل مما يجب عليه وما تطيقه قواه! وتلك حال لا يقبلها الإسلام بل ويستحيل أن تنهض معها أمته! .

والحكومات فى هذا العصر هى المسئولة عن تهديد ميادين العمل ، وعن تقريب مناله لكل طالب ، بل عن تحويل أعبائه لكل كاهم ..

فليس التعطل مشكلة فردية ، بل هو أزمة اجتماعية .

* * *

ومن المستحيل قطع دابر هذا التعطل بالنصائح والتذكير ، مهما ارتفعت فيها حرارة الإخلاص ، ومهما سيق فيها من آيات الله والحكمة !!

لأن الضوابط الاقتصادية الناشئة عن طغيان الاستعمار الداخلي مُحكمة الحلقات ، بل هي تخلق التعطل خلقاً ، وستظل السبل ملأى بالمعطلين والمتسولين الأصحاء منهم ، أو أصحاب العاهات ، إلى أن تفض هذه الحلقات المضروبة ، وإلى أن يصبح العمل ضرورة يلزم بها كل فرد ، فإما دفعها واستحق الحياة ، وإما دفع دونها دمه وأخلق الطريق للعاملين ..

وقد سُنت أخيراً قوانين للعمل قاربت مثيلاتها في أوروبا ، وحددت أجور العمال في مصالح الحكومة وأنواع الشركات .

ولكن العمال الزراعيين يستغلون شهرين من العام بأتفه الأجور ، ثم يتعطّلون سائر العام وهم يأكلون لقمة مغمومة بالسم - كما يقولون - .

وكتيرون من أبناء الأمة موارد رزقهم مبهمة ، ونهاية حياتهم مظلمة .

ولو وجد هؤلاء أبواب العمل لاقتحموها ، ولكن إنتاجهم فيها مضرّب الأمثال .. !

أمثلة وقادة :

هذه صورة سريعة لبعض الرذائل الخلقية والاجتماعية ، التي يضطرب فيها مجتمعنا ، والتي تختضن عنها الأوضاع الاقتصادية المعوجة عندنا .

ولو ذهينا نستقصى أسباب الكثير من المعاشر الدينية ، لوجدنا الضمير الإنساني يعاني محنّاً قاسية ، ولوجدنا الفطرة الإنسانية لا تلبث - وهي في سذاجة الطفولة - أن يدركها من الشقاء ما يطمسها .

فإذا تخطّت إلى طور الرجولة ، خلقاً آخر لا تنتفع به الدنيا ولا ينتفع به دين ، خلقاً يقارف الرذائل والمحاقر من الأمور ، ويعيش لها عيشته المشوّهة الناقصة حتى يوارى في بطنه الشري ، فلا تسمع له ركزاً !! .

أحلال هذا أم حرام؟!!



إن رجلين عاقلين لا يختلفان في حرمة هذه الحالة وقد وضع أئمة الفقه الإسلامي قاعدة ثابتة هي أن : «كل ما أدى إلى الحرام فهو حرام» فلا بد إدراً من إعادة التوازن الاقتصادي ، على أساس لا تبقى معه هذه الموبقات ، ولا تتوطن فيه هذه المفاسد الشائنة .

فإذا لم نفعل هذا ، .. فأخوف ما أخافه أن ينكبَ دينُ الله ودنيا الناس جمِيعاً نكبةً ساحقةً ، إذ تُتَّهمُ الدنيا بالظلم والطغيان ، ويتُّهمُ الدين بالسُّكُوت على الظلم والجمود أمام الظالمين .

وينبغي أن لا ننسى - إذ نقرر هذه الحقيقة - صيحات رجال الثورة الفرنسية : «اشنعوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس» ! .

فقد اعتبروا الدين متآمراً مع الأُرستقراطية ، على قتل الشعب وإهدار حقوق الإنسان .
ويقول القرآن الكريم - محذراً من عواقب هذا الاختلاط الاقتصادي : -

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُوا بِأَسْنَانِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرَفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنُكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيَلَانَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تَلْكَ دُعَوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾ .

وأنت تسأل إذ نقرأ ذلك : ما السر في أن يُناقش الظالمون الحساب في مساكنهم ، التي قضوا فيها حياتهم الآثمة ! ثم لا تلبث أن تدرك الحكمة البالغة في أن تكون ساحة المحكمة هي الديار التي شهدت المجرم باغيًا .

وهل أدل على إشعار الجاني بما اقترف ، من أن يكون استجوابه أمام جسم الجريمة ومادتها ؟ وإذاً فليكن حساب المترفين ، أن تعرض أمام أعينهم . مظاهر من دنياهم المسرورة ، وإلى جانبها مظاهر من دنيا البائسين المقهورة .

ثم يؤخذ من المقارنة بين الحالتين ، نصُّ الاتهام ، ودليل الإجرام .
وسوف يذوق الجاني عقابه أجلًا ، إن أفلت منه عاجلاً .
والظلم - أبدًا - مرتعهُ وخيم (٢) .

(٢) نشر هذا الكلام قبل الثورة بستين طوال .

(١) سورة الأنبياء آية ١١ - ١٥ .

مساواة واهمة :

قد يقال : أين هى آثار نظام الطبقات ، وما هذا الكلام عن الأوضاع الاقتصادية المختلفة ، مع أن الناس جميعاً يأخذون أنصبتهم من الحريات العامة بأقساط متساوية ، وهم - مهما تفاوتوا - سواء أمام القانون ، كما نص على ذلك الدستور؟؟ .

وهذا كلام قد تبدو عليه مسحة الصحة ، ولكنه فى باطن الأمر عليل ..

فليس القانون الموضوع - ليتحاكم الناس إليه - هو كل شيء ، حتى يذكر هذا الاعتراض .

لقد طفتُ أكثر البلاد العربية فلم أجد في أحدٍ التفاوت بين الناس الذي وجدته في مصر ..

رأيت الإنسان العادي ينادي الوزير فمن دونه قائلاً بصوت جهير : أبا فلان!!
فilletفت الموظف المنادى مهما كان منصبه ملبياً النداء دون تأفف ولا ضجر ..

ورأيت الخادم في بيوت الأغنياء مرعياً الكرامة ، ويغلب - إن لم يتحتم - أن يأكل من طعام رب البيت ..

وحرمته المادية والمعنوية مصونة لا يفكر أحد في إهانتها أو تجاهلها .

ورأيت الضابط والجندي زميل عمل ، ورفيق سلاح ، تجمع بينهما عشرة حسنة ، يوقد الصغير الكبير ، ويرحم الكبير الصغير ، ولا تجرى على ألسنتهما بذاءة ، أو يسكن قلوبهما كره ..

رأيت البشر هنالك يحيون على تفاوت الأرزاق حياة لا انكسار فيها ولا إذلال .

فقلت لصديق لي : فما بالنا نحن نصنع مجتمعًا حافلاً بالنقائض والمنقصات؟! .

فقال : لعلها آثار الحكم التركي في بلادنا!! بقيت بعد ما زال وانقضى عهده .

فقلت : أعلم أن للأتراك في هذا السفه ماضياً معنتاً ، ولكن الأتراك حكموا البلاد العربية كلها ، فلم بقيت هذه الرواسب لدينا وحدنا؟! .

وفكرت في الأمر فوجدت ، أن بقايا الفرعونية الأولى ، إلى جانب الغشم التركي ، إلى جانب الفقر الرهيب والغنى الربح ، إلى جانب ضياع معنى الإيمان الحى .. إلى جانب أمور أخرى كثيرة ، صنعت في مصر ما نرى .

فهناك تقاليد مقررة ، ومبادئ قائمة ، هي أعمق أثراً ، وأشد نفاذًا في بيئاتنا كلها ، أقامت من الفوارق بين أبناء الأمة الواحدة ، ما يتعدى معه أي إصلاح !!

ولقد أقامت سنوات في المدن ، وسنوات في الريف ، فرأيت أمراض هذا الداء متفشية في كل مكان ، وتأكدت من أن كرامة الفرد محدودة الشمن ، يشتريها ويدوسها - إذا شاء - موظف صغير ..

وأن طبقات الأمة لا تستمتع بالمساواة الحقة الكاملة في العلم وفي الحكم . بل ولا في الطعام واللباس والتمريض والتوجيه العام .

والتفكير المستكبر الجهول ، الذي شرد «جبلة بن الأبيهم » ، لا يزال يملأ رءوس الكثيرين من سادتنا الذين لم يشردوا بعد !

وهذا التفاوت العجيب يظهر حتى في الثياب التي نرتديها ! تلك الثياب التي جعلت من الأمة المصرية الواحدة «كرنفالاً» لا تؤذن مهازله بانتهاء ، فكأن الأزقة والميادين تأخذ أمداد المارة من عدة شعوب ، أو كأنها تَعْجَ بخلط ضلٌّ من بيته الأصيل ، فليس يُدرِّي أعربيًّا هو أم أعمجيّ !؟.

ومع ذلك نزعم في أنفسنا وَحْدَة الفكر والشعور والاتجاه !
فأين ذلك من وصية النبي محمد - صلوات الله عليه وسلم - لصاحبه أبي ذر بشأن خادمه «أطعمه مما تطعم وألبسه مما تلبس»⁽¹⁾ .

ومن آثار هذا الاحتلال ، أن تلوّثت حقيقة الخير في النفوس ، حتى هبطت إلى مستوى لم تهبط إليه من قبل ..

وأين - برب الناس - معنى الخير في حفلات لاهية صاحبة ، يرصد دخلها لإعانة المكتوبين؟! .

وكيف يأبى المترفون إلا الحرص على مُتعهم الحقيرة ، حتى في الساعات التي يصطرب فيها الأشقياء ، فيأبى هؤلاء أن يرسلوا إغاثتهم إلا وقد أخذوا في مقابلها لذة وأطفأوا شهوة؟!! .

أتراهم لو شعروا بالإخاء الصحيح ، والمساواة الكاملة ، التي تربطهم بجمهور الشعب ، أكانوا يستسيغون ارتكاب هذه السفاسف الوضيعة ..؟!!

وقد انتشر هذا الفساد - من أعلى إلى أسفل كما أشرنا سابقاً - فإذا أقيمت نظرة

(1) فتح الباري .

عجل على المنشآت الخيرية ، وجدتها لم تقم - غالباً - على بُرّ خالص أو سماحة مشكورة ، بل وجدت الكثير منها تأسس على مال «اليانصيب» وهو المال الذي دفعه أصحابه طمعاً في أن يرتد أضعافاً ، ليست الأضعاف السبعمائة التي ينتظراها المؤمنون ، بل هي الأضعاف المبهمة التي ينتظراها المقامرون! .

ولست أعرف الخير ينتزع انتزاعاً من مصادر الشر ، كما أعرفه في هذه المستشفيات ، والمبرات التي تستميت فيأخذ المال من جيوب لا يبذل أصحابها شيئاً في سبيل الله ، على حين يبذلون الكثير في سبيل الشيطان !

ومن آثار هذا الانحلال أن ظهرت هذه الأرستقراطية العلمية الشائعة في كثير من الأوساط المثقفة!! .

ففي الوقت الذي لا يزال جمهور الأمة يفكر فيه بعقلية الزنوج الهممل ، تحت وطأة الجهل المتراكم عليه من قرون ، نرى البعض يفكر بعقلية اللاتين ، أو السكسون ، أو الأميركيان ، ويحيط نفسه في البيت وفي النادي وفي الملهى ، بهذا الجو الغربي البهيج الألوان!! .

والهدف الفذ لهذه الطائفة ، أو لاغلب أفرادها ، أن يحوّلوا قوتهم العلمية إلى قوة مالية ..

فهم يتکالبون على شراء الممتلكات المختلفة من عزب وعمارات! .

وبذلك تتأمر شتى العوامل على إبقاء الطبقة الدنيا .

فقيرة من العلم ..

فقيرة من المال ..

فقيرة من القوة والسلامة والعافية .

ونشأ عن ذلك ، أن معظم درجات التعليم ، لا يطيق الانتظام في سلوكها إلا القليلون من أبناء الطبقات العليا ، ونفر قليل من أبناء الطبقة الوسطى ، التي تكافع - دائمًا - لحفظ مركزها وصيانته حقوقها في الحياة ..

ورعوس هذه الطبقة ، كثيرةً ما يتكلمون عن الأمة الجاهلة ، كما تراها عقولهم الكبيرة ، والضعيفة ، كما تحسها نفوسهم القوية ، يتكلمون عنها ، وهم لا يشاركونها حياتها ، ولا يشاطرونها آلامها ، لأن من خصائص طبقتهم الممتازة بالعلم والمال ، ألا تخلط المواطنين إلا بحذر وقدر!

فالعلم والغطرسة على سواد الشعب متلازمان .

ولا يكاد أحد هؤلاء السادة يحيى الجمهور إلا بهزة من ذراعه ، ثم لا تلبث قوانين الجاذبية ، أن توقف تذبذبها ثم تردها إلى وضعها السابق العتيدي !!

ومن آثار ذلك أن الجندي يستطيع أن يفلت منها الأغنياء وأوساط الناس . . .

أليس دفع (البدل) جائزًا؟ وما دام يمكننا دفع ضريبة الجيب ^(١) بدل ضريبة الدم على المساواة العفاء ! .

ومن الغرائب أنهم لما عدلوا هذا القانون ، جعلوا البدل الشخصى يقوم أحياناً ببدل البدل النقدي ! .

أليس هذا ذريعة ليتمكن المترفون من إبقاء أبنائهم معهم ، وليرأذن الجيش حاجته من أبناء الفلاحين والعمال فقط !! .

مع أن الأمر الذى لا ريب فيه أن الأمة أحوج إلى إبقاء الفلاح فى حقله والعامل فى مصنعه .

وأشد حاجة إلى كف هؤلاء المترفين عن عبئهم الفارغ ، وقادتهم - رغم أنوفهم - إلى ميادين التدريب والتمرين .

ولا نريد أن ننضى فى سرد المظاهر الدالة على صدق ما أثبتناه أول هذا الكلام ، فهى كثيرة ملموسة ، ولا أن نضرب الأمثلة ، لما يحدثه تفاوت عناصر الأمة الشديد فى اقتسام أهم مقومات الحياة ، فما نظن أحداً يجهل ذلك . ولكن نريد أن نعرف ، ما السبيل إلى تلافي هذه الأضرار والأوزار فنسلكها عاجلين مسارعين؟ .

ولعلنا نوفق إلى صنع معالم الطريق ، بعد أن يصل بحثنا هذا إلى غايتها إن شاء الله .

(١) صدر بعد ذلك قانون تعميم التجنيد وهذا حسن ، وحيذًا لو أبيحت ترقية ضباط الصف إلى ضباط عاملين بالجيش ، فإن ذلك يفتح أبواب الأمل أمام الجنود ، ويسعى الضباط بأن أنوار اليوم قد يكونون زملاء الغد ما يدعم الأخوة الواجبة بين المواطنين كافة من جنود وضباط .

هل للفضائل أسباب اقتصادية؟

أجدُنِي بحاجة إلى أن أؤكد مرة أخرى قيمة الفطرة الإنسانية ، ومبَلَغِ الكمال الذي تستطيع معنوياتها أن تصل إليه ، مهما أحيطت بالعوامل المضادة لها .

فقد تحفظ الجذوة بحرارتها وتشتعلها أمدًا طويلاً بين أكواخ التراب البارد!! .

وقد تنمو في جوف الصحراء ، أشجار تخزن في أوراقها الماء والخضرة والرُّى! .

وإقرار هذه الحقائق لا ينكر حقائق أخرى ، تعلن أن الفضائل الإنسانية والقومية تفتقر في نوتها إلى موارد دافقة ، من أمواج الحياة الغنية الكريمة العزيزة ، وأن هذه الفضائل قد تذوي وتنتهي إذا لم تجد هذه الأداد المتابعة التي تمدها بالغذاء والتماء .

وما هو جدير بالذكر : أن النبي - صلوات الله عليه وسلم - كان يستعين بالله كثيراً من الديون وشروعها ، وقد سمع ذلك منه مراراً ، حتى سُئل في ذلك فأجاب بأن المدين قد تُلْجئه قلة الوفاء إلى الكذب .

فإذا كانت بعض أحوال الدنيا توحى بالكذب والبخل ، فبعضها الآخر يوحى بالصدق والكرم - لا مراء - ونريد نحن أن ننظر إلى بيئتنا لنرى ، أتوحى بالفضائل وتنشئ النفوس عليها ، أم أن لها إيحاء آخر؟؟؟

وليس فيما شرحتناه في الفصل السابق غناء عن متابعة النظر في هذا المنهى فنحن نقصد - هنا - بالفضائل المستوحة من البيئة ، تلك الفضائل الإيجابية الجليلة ، من إنسانية عامة ، أو من قومية خاصة! .

تلك التي لا تقوم على ظهر الأرض حضارة عظيمة إلا في ظلها .

* * *

وفقدان العدالة الاجتماعية في أنحاء هذا الوادي جعل الناس يخرجون من ظلام الأرحام إلى ظلام الدنيا المليئة بالفاقة والجهالة ، لا عمل لهم إلا ما توارثوه من بذر الحب وانتظار الثمار من رب كما يقولون .

فإذا طلعت الشمس عليهم طلعت على قوم ، لم يجعل الفقر لهم من دونها ستراً ، بل طلعت على قوم لا يكادون يفهون قولًا! .

وكان لزاماً - في هذه الحياة الراكرة الجامدة - أن يصاب جمهور الشعب بنقص عقلى ، هبط بقواهم الأدبية ، هبوطه بقواهم المادية .

ومن المفيد أن نعلم أن عقل الإنسان كجسمه ، يحتاج إلى غذاء دسم منظم ، لكنه يستمر نماؤه ويتم كماله ، ذلك أنه - كثيراً - ما نجد الرجل في سن الخمسين ، وعقله دون هذه السن بكثير! ، فنجد له تفكير الأطفال ، وقصور فهمهم لشئون الحياة العامة .

والسر في ذلك بَيْنَ ، ففي حين وَجَدَ هذا الرجل حاجاته الضرورية لجسمه من طعام وشراب ، فقد حاجاته الضرورية لعقله ، من علوم وثقافات وأداب! .

وقد يكون المعدن العقلى لهذا الرجل نفيساً ، ولكنه كالأرض الطيبة التربة ، لم تجد ماء ولا بذرًا فلم تجد فيها حياة ولا ازدهاراً .

ومن المخزن أن ننظر إلى كثيرين من أبناء أمتنا ، فنراهم قد أصيروا بهذا الشلل العقلى ، والعقم الفكري ، والهوان الأليم في إنسانيته ، لأنهم حرموا في طفولتهم ، وفي رجولتهم ، هذا الغذاء العقلى ، الذي لابد منه .

والنقص الأدبى لا يحس به صاحبه إحساسه بالنقص المادى ..

بل ربما أحاطت به أحواله تشعره بالكمال والعظمة ، وتهون في نظرية القيم المعنوية .

ولو أن كل محروم من وسائل المعرفة والفضيلة ، يتآلم لذلك ألم الجوعان لفقدان ما يرحم معدته من وقود ، لاستراح الناس واسترخنا من لوثات الأغبياء والأدعياء!! .

لكن المجتمع العام - بعكس الفرد - شديد التأثر والإحساس بمدى الكمال المعنوى لمن ينت�ون إليه ويعيشون فيه .

فمن الناحية الدينية ، يحتاج الإيمان إلى الكمال العقلى . والله عز وجل يقول :

﴿إِنَّقُونِ يَا أُولَئِكَ الْأَلْيَابِ﴾⁽¹⁾ .

ومن الناحية الدنيوية ، تقل الفوارق كثيراً بين الإنسان والحيوان ، كلما قل عقله ، فيهبط السلوك الإنساني إلى الحضيض بهبوط التفكير .

ونحن أمّة أحوج ما تكون إلى العلم الواسع ، لتنتفع به في دينها ودنياها . وكيف الطريق إلى ذلك إذا لم تتلاش فوارق الطبقات ، ولم يتلاش معها التظالم الاجتماعي .

(1) سورة البقرة آية ١٩٧ .

ثم يبني المجتمع على أساس من احترام الإنسان ، وتقدير حقوقه ، وتنمية ملكاته ،
وتدعيم فضائله؟ .
ذلك من الناحية الإنسانية .

* * *

أما من الناحية القومية ، فإن فضائل الشعوب الحية ينقصنا - مع الأسف - الكثير
منها .

إذ لابد للشعب الحر من توافر الحمية والأنفة والشجاعة والتضحية ، فأئن ذلك؟!
وللأممية الغالبة على بلادنا أثر بالغ السوء في تبلد المشاعر ، وضعف الفهم لقضايا
الوطن ، وقلة الحماسة العامة لها ، وعدم انعقاد الإجماع على نصرتها ورواج النفاق
السياسي بين المحترفين القدامى من الساسة الشيوخ ، الذين تصدروا الصحف؛ لأن
الغاصبين أرادوا لهم أن يتقدموها .

وبين الهوا الجدد من أغرتهم المنافع ، وظنوا أن في الاشتغال بالسياسة كسباً
لأشخاصهم ، وليس واجباً يفرضه عليهم هذا الوطن المغلوب على أمره! .

ولقد كانت الحوادث الأخيرة عبرة ، لمن يرقبون أطوار اليقظة القومية في بلادنا .

فقد دلت على أن هناك بقايا كثيرة من التخدير الذي أمات الإحساس الصحيح في
جسم الأمة ، فهى تحاول النهوض ، فيطأوونها بعض أطراها؛ ويستعصى البعض
الآخر!! .

وهي تنظر بعين ، فيها بوارد الغضب ، وفيها فتور النوم! .

وهي تفتح فمها فلا تدرى : ألتقول الكلمة الفاصلة؟! أم لتشاءب ، أم لتخلط بين
الأمرین؟! .

وعندما أعلن الطلبة غضبهم⁽¹⁾ الأخيرة لمستقبل بلادهم الغائم ، كان على
(القهوات) رجال يطالعون أنباء الطلبة كما يطالعون أنباء الصين ، ورجال يخرجون من
الأزقة القدرة إلى أعمالهم المعتادة وهم يضحكون أو يتضاحكون ، ورجال آخرون في
صميم الريف يسكنون بأذیال البقر وينطلقون خفافاً أو ثقلاً إلى الحقول - ليقضوا
سحابة النهار - ثم يعودون مع الليل الهدائى ، إلى القرية النائمة أبداً!! .

(1) في مأساة (كويرى عباس) المشهورة ، حيث قتل بضع عشرات من الطلاب على عهد الأقلية الحاكمة من رجال
الحزب السعدي ، وقد انتهت هذا العدوان الوحشى بسقوط الوزارة فحسب (!) .

ذلك كله . . . لأن الوعي الاجتماعي ضعيف عندنا ، والفضائل القومية - تبعاً لذلك - فاترة مريضة .

ولكيما تقوى وتصح ، يجب أن نبحث لها عن الدواء ، ولن نعرف الدواء إلا إذا عرفنا أن للفضائل العامة والخاصة دعائم اقتصادية ، يجب تعرفها وتقريبها .

ولننضرِّبِ المثل ببعض الفضائل المطلوبة ، لنرى مصداق ما نقول :

عزَّةُ النَّفْسِ :

فضيلة يطلبها الدين ، و يجعلها من خصائص المؤمنين ، وينكرها على الفاسدين ، في أقوالهم وأعمالهم .

قال الله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْدُدُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (١) .

ولكن مجتمعات البشر ، لم تقم على هذا الأساس ، وحاوت أن تجعل للقلة والكثرة دخلاً في العزة والذلة . وقدماً قال الشاعر :

ولست بالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَّا
وَإِنَّمَا الْعِزَّةَ لِلْكَاثِرِ

والقرآن الكريم نفسه ، يصف المؤمنين قبل موقعة « بدر » بأنهم كانوا أذلة إذ يقول :

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذْلَةٌ﴾ (٢) .

ويتن عليهم بأنهم بهذه النصر انتقلوا من حال إلى حال ، وأنهم اشتدوا به مادياً وأدبياً ، معنوياً واقتصادياً :

﴿وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفُكُمُ النَّاسُ فَأَوْاْكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ (٣) .

ويمكنك أن تنظر إلى أحوال رقيق الأرض من الفلاحين ، وإلى أشباههم من الطبقات البائسة . أتجد لديهم عزة نفسية؟! .. وإذا وجدت شيئاً من ذلك ، أستطيع القول : بأن ذلك يشبه عزة الموظفين والتجار والملاك وغيرهم ، من أصحاب الأوضاع الاقتصادية الكريمة؟! لا ..

(٢) الأنفال ٢٦ .

(٢) آل عمران ١٢٣ .

(١) سورة فاطر آية ١٠ .

فجاجة النفس الإنسانية إلى س Nad مادى ، لتقوى به وتعتز ، أمر لا بد منه والإ
فسيلركها ذل الاحتياج ، وهوان الشأن في البيئة الفقيرة الحقيرة !

ولولا الكفاح المتتابع الجاد ، الذى قام - ولم يزل يقوم به العلم والإيمان - لاستبد في
الأرض سلطان الكثرة في المال والجاه ، ولأنكر على الطبقات الفقيرة كل شرف وتقدير .
فلنغرس العزة في النفوس - إذا شئنا - بالدعويات الواسعة والهتافات المدوية .

ولكن لن يبقى بعد ذلك ، إلا أثر المكان الذي ينبع العزة ، والمجتمع الذي يمنحك كل
الطبقات نصيبها المفروض لها ، من الإباء والتطلع والاعتزاز .

وقد يعقل الفقر الفتى دون همه وقد كان لولا الفقر طلائع أنجد

ومن المؤلم أن الذل اختلط بالدين الآن اختلاطاً سمجاً ، فكثيراً ما كنت أستمع إلى
كلمات الرضا « بما قسم الله لي » من أفواه الفلاحين الكسالي المنكوبين في أرزاقهم ،
ومن أفواه العمال المضيعين في أجورهم . ومن أمثال هؤلاء ، وأولئك ، من حظهم في
الحياة ضئيل ، ونصيبهم من الدنيا قليل ! ولا يسعون إلى تغيير وضعهم بالعمل والعلم
والوعي والإيمان . . .

فكنت - أول الأمر - مخدوعاً بما تشير إليه الكلمة من إيمان وتسليم ، حتى تبيّنت
أخيراً أن للكلمة الشائعة دلالة أخرى ، قد تكون أقرب إلى الواقع ! .

فرجعت أتساءل . . ترى هل هذا رضاء بالقدر في أشد أحواله ? .

أم هو حرص على الحياة في أحاط صورها !?
ولم يطل تساءلى كثيراً ، فقد عرفت وجه الحق .

إن المسألة لا تعدو الاستمساك بأهداب الحياة ، ولو كانت في الدرك الأسفل من
الشقاء . والاستنامة في مهاد الذل ، ولو كان مليئاً بالأشواك والأقدار ! .

ترى هذا كله ثاوياً في قرارات النفوس المريضة ، تمكن له التعاليم الضالة والفكير
الخاطئ ، فإذا هو يظهر على الألسنة كأنه تسبيح وتحميد ، ولكنه في الحقيقة الركون
إلى معيشة العبيد !

وقد عاب القرآن قوماً ، لأنهم يرضون بالحياة على أى صورها فقال :

﴿وَلَتَجَدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمًَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزْحِجٍهِ مِنِ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرُ﴾ (١).

إن عدم الفرار من الحياة القدرة - ولو إلى الموت - مهانة نفسية ، لفت في سوادها أكثر أقطار الشرق الإسلامي .

والغريب أن يكون هذا باسم الإيمان بالله ، والتسليم للقدر ، مع أن التجارب علمتنا : أن الجرأة على الموت فضيلة لا تظهر إلا في الشعوب الحية والأم القوية ، وضربية الدم التي نسمع عنها ؛ لن يدفعها إلا أبناء هذه الأم العظيمة .

وقد كان العرب الأوائل يحرصون على الموت ، أكثر ما يحرص أعداؤهم على الحياة ..

أما الحياة السقية ، فهم أبعد الناس عن الرضا بها ، أو الهدوء في كنفها .

فأين من هذا أقوام يطعون بطونهم على خشاش الأرض ثم لا يرضون بهذا فحسب ، بل يقولون : « اللهم أدمها نعمة ، واحفظها من الزوال ». .

أليس زوال هؤلاء نعمة تستريح بها الحياة! . إن استحال إصلاحهم؟

قال ابن المفع على لسان « كليلة ودمنة » :

« إن من الناس من لا مروءة له ، وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالثون! ؛ كالكلب الذي يُصِيبُ عظماً يابساً فيفرح به! .

وأما أهل الفضل والمرءة ، فلا يُقنعهم القليل ، ولا يرضون به ، دون أن تسمو به نفوسهم إلى ما هم أهل له ، وهو أيضاً لهم أهل ، كالأسد الذي يفترس الأرنب ، فإذا رأى البعير تركها وطلب البعير .

ألا ترى أن الكلب يصيبح بذنبه ، حتى ترمى له الكسرة . إن الفيل المعترف بفضلة وقوته إذا قدم إليه علفه لا يختلف حتى يمسح ويتملق له .

فمن عاش ذا مال وكان ذا فضل وإفضل على أهله وإنوائه ، فهو - وإن قل عمره - طويل العمر .

ومن كان في عيشة ضيق وقلة وإمساك على نفسه وذويه فالمقبول أحيا منه ، ومن عمل لبطنه وقنع ، وترك ما سوى ذلك عد من البهائم .

قال كليلة : قد فهمت ما قلت ، فراجع عقلك ، واعلم أن لكل إنسان منزلة وقدراً .

(١) البقرة آية ٩٦

فإن كان في منزلته التي هو فيها متماسكاً كان حقيقةً أن يقنع . وليس لنا من المنزلة ما يحط حالنا التي نحن عليها .

قال دمنه : إن المنازل متنازعة مشتركة على قدر المروءة .

فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة ، ومن لا مروءة له ، يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة ! .

وإن الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديد ، والانحطاط منها هين ، كالحجر الثقيل : رفعه من الأرض إلى العائق عسر ، ووضعه إلى الأرض هين .. فحن أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل ، وأن نلتمس ذلك بمروءتنا . » .

التعلم :

فضيلة طالما أطنب الدين في مدحها ، حتى جعل منزلة العالم بين العباد كمنزلة البدر بين سائر الكواكب ! وحتى جعل فضل العالم ، تشهد به الطيور في الجو ، والحيتان في البحر !

ولكن بقدر ما مدح الدين العلم ، بقدر ما تهاوى المسلمين في الجهل !! .
فما حولتهم نصائحه بدوراً ولا شموعاً ، ولا شهد لهم بالفضل طير ولا دابة ، بل قلت نسبة المتعلمين ، وفحشت نسبة الجهال ، وأضحي مستوانا العلمي لا يشرف أبداً !! .

ومنذ عشرين عاماً ، والمصلحون في مصر يحاربون هذه الروح المنكرة ، حتى استطاعوا أن يرفعوا نسبة المتعلمين إلى ٢٠٪ ، من بينهم من يحسن كتابة اسمه فقط ، ومن يحسن قراءة الصحف بعد إعلان الحرب على علماء اللغة جمیعاً . وقد تعلو نسبة التعليم مع هذه الجهود الدائبة ، بيد أن نسبة المثقفين لا تزال ضئيلة ، ومستوى التربية العامة لا يزال أدنى من أقطار أخرى .

وبديهي أن تعميم التعليم بالتصح والإرشاد والترغيب ، أمر لا طائل تحته فإن الأمر يحتاج إلى إزام عام ، تُسخر فيه قوى الدولة ومواردها !

ويجب أن تلين أنظمة الأمة الاقتصادية والاجتماعية ، تبعاً لذلك ، حتى لا يبقى في البلاد جاهل واحد . وإلا فلا قيمة مع الجهل لدين يبقى لنا ، أو لدنيا نحيا فيها .
إن احتكار العلم كان - قدماً - إحدى الدعائم التي يقوم عليها نظام الطبقات ..

فكان الكهان والرهبان ، ومن على شاكلتهم يمنعون المعرفة القليلة التي بين أيديهم أن تصل إلى غيرهم ، حتى لا يشاركون في القداسة والكبرياء المفروضتين لطبقتهم ! .

وقد أشرنا آنفًا إلى أن هناك أرستقراطية علمية ، تُتمم زميلتها المادية ، ويعانى الشعب الأمرين فى ظلهم .

ولا فكاك من هذه القيود المظلمة إلا بإشاعة العلم ، وتحطيم الحواجز القائمة ، التي تحرم الجمصور أن يَعْبَرَ منه حتى يرتوى ويكتفى ، إن كان من العلم ارتواء أو اكتفاء .

وينبغي أن نجذب بأن العلة الأولى في فساد التدين وتآخر أصحابه ، هي الجهل الشقيل ، الذي ضيق آفاق الحياة في أعينهم ، وأفسد الذوق الإنساني في فطرتهم ، ووقفهم أمام نصوص الدين وهم لا يفهون .

ذلك لأن القرآن نفسه يقول :

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ ^(١) .

فكيف بعد ذلك يوجد مع الجهل دين؟

وكيف يعم الدين القلوب ، إذا لم يعم العلم العقول؟

وكيف يتم هذا أو ذاك ، إلا في حراسة العدل الاجتماعي الصحيح؟

حسن الخلق :

فضيلة إنسانية ، حض عليها الدين . وجعلها ثمرة لكثير من العبادات التي أمر بها ، واعتبرها أماراة الكمال البشري . في أرقى مراتبه ، حتى لم يوصف النبي - صلوات الله وسلامه عليه - إلا بها ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ ^(٢) .. في معرض مدحه وبيان فضله .

وال المجتمع الذي يتوافر حسن الخلق في معاملاته ، هو هدف الرسالات العظيمة ، من دينية ودنية .

ونحن إذا حللنا سوء الخلق ، ورجعناه إلى عناصره التي يتكون منها كما يتكون الماء من عنصريه المعروفين ، لوجدناه مزيجاً من جهل وفقر ، أو جهل ومرض ، أو جهل وترف .
والحق أن خلو المجتمع من هذه العناصر ، يتبعه - غالباً - خلوه من شراسة الأخلاق وضعف السلوك!!

(١) سورة العنكبوت آية ٤٣ .

(٢) سورة القلم آية ٤ .

وأن المجتمعات التي يروقك شرف معاملاتها ، وجمال أدابها ، وصدق اتجاهاتها ، هي هذه المجتمعات ، التي تأصل فيها العلم ، وسادتها العافية ، وتقربت فيها العقول ، وتساوت فيها الحقوق ، وأمكن فيها التفاهم والتعارف وتجاوبت فيها العواطف .

حتى لتكاد التحية العابرة في الطريق أو في الترام تؤسس حبًّا مكيناً بين أصحابها ..

أما هنا ، فالحرمان ملأ النفوس بالبغضاء ، والتفاوت البالغ بين الثقافات والمشارب والمنافع جعل الناس يتنفسون في جوًّ من الشراسة والتناكر .

وفي البيت أو في الشارع ، في القرية ، أو في المدينة . يكون من أيسر الأمور ، أن تحول المناقشات التافهة ، إلى معارك حامية !! .

ثم نبحث عن حسن الخلق ، فلا نجد إلا قشرة خفيفة ، وراءها جفاء غليظ ! . ولا عجب ، فهذه النتيجة هي آخر ما يمكن للدين أن يصل إليه بالكلام . أما إذا أردنا النتائج العملية العظيمة ، فلها طرق أخرى .

وسنجد في هذه الطرق أن حسن الخلق ثمرة دانية القطوف ، في كل مجتمع ذكي غنى قوى .

يصل الدين إلى تحقيق أغراضه فيه ، بحسن توزيع العلم ، وحسن توزيع المال .

أما قبل ذلك ، فلا موضع لأمل ، ولا جدوى في عمل .

ذلك لأن الخلق ليس شيئاً يقول له الخطيب المجيد : كن فيكون ! بل هو أثر تفاعل النفس مع البيئة في البيت والشارع والعمل والمدرسة وغير ذلك . . .

فيجب تكييف هذه الأشياء كلها ، لتعيين على تحقيق ما نريد .

شرق جديد :

من الكلمات التي كنت أستمع إليها وأظنهما من الحقائق المسلمة ، أن الشرق موطن الروحانيات ، وملهم العالم مُثله العليا ، وموئل الفضائل الجليلة إن نَبَتْ بها دار أو تنكرت لها أقطار !! وأن ربوع الشرق أتختمت بهذه النظارات الإنسانية العليا .

حتى صاح «أمين الريحانى» صيحة الوجل من كثرتها ، يريد أن يستبدل بها بعض الإنتاج المادى الذى زخر به الغرب فهو يقول : «أنا الشرق عندي فلسفات ! من يبيعنى بها دبابات وطائرات» .

هذه الكلمات الناطقة بأن الشرق وطن الفلسفات الروحية المجردة ! وخصم الأفكار المادية المخصبة هى - عندي - موضع نظر الآن ، ويجب أن نعرضها على ميزان النقد ، لنعرف حقيقة ما تنطوى عليه ، ولنعرف - كذلك - قيمة ما لدينا وقيمة ما لدى غيرنا : فلا نصل ولا نخزى !!

لقد بحثت عن هذه الروحانية المزعومة في مظانها المختلفة ، فلم أجدها أثراً يذكر .
أتجدها في حياة الكبراء الشرقيين؟! لا .

إن باشوات هذا الوادي الخصب ، وبعض أشياخ العرب المترفين ، ومهراجات الهند ،
في أرضهم المبهمة ، لا يدرؤن شيئاً في معايشهم المفعمة بالنعمة والثراء .. عن
الروحانية وفلسفتها!! .

بل إن مقاييس المادية المغرقة ومساوئ الانحباس في بهيمية الحياة الدنيا ، لا تجد لها
مجالاً أوسع ، مما تجده في هذه الطبقات المتكبرة .

أين تجد هذه الروحانية؟ أين طوائف الفقراء المحرومين؟!!

أحسبك لن تصور السجن الذي ضم هؤلاء البائسين برجاً عاجياً ، أو تخيل
ابتعادهم عن الطيبات والماهوج ، زهداً مقصوداً ، وتعالياً محومداً .

إنما هي فوضى الأوضاع وفلسفة الحرمان ، وهذه لا تساوى في «سوق النقد» شيئاً
نشترى به من الغرب دبابات ولا هراوات ، وما تقدم الغرب إلا يوم مشى في طريق
بعض تربة الموطئ بالأقدام ، هذه الفلسفات البائسة!! .

وقد مرت الروحانية الشرقية بتجربة قاسية ، يوم خرس لسان كاهاها الأكبر
«غاندي» عن استئنكار المذايق الطائفية ، التي التهمت ألف الأطفال والنساء والرجال ،
غداة استقر الأمر على تقسيم الهند إلى شطرين .

وكان ذلك على غير رغبة المهاجم صاحب فلسفة السلام العام والبعد عن أسباب الخصم!
خرست هذه الفلسفة ، بعد أن ثرثرت قليلاً ، لتتلقن تمثيل دورها ، فما أجدها هذا
الخداع إلا أن كشف نيتها ، وفضح طويتها ، فلا روحانية ، ولا روحاينين .

إن نزوات الأجسام إلى الطعام والشراب والنساء ، أخذت صورتها الحالم ، في ألف
ليلة وليلة! وأخذت صورتها الواقع في قصور الواجبين الفاسدين ، وتميز الشرق ، بأن
بعض كبرائه يوزن بالذهب واللناس ، ويبغثهما من غير حسيب!

نعم قد يوصف الشرق بالروحانية ، لأن مهبط الديانات ، ومطلع أشعتها ، ومواث
صحائفها المطهرة للعالمين .

بيد أن حالة الديانات الآن في الشرق ، أو في الغرب ، لا تسر .

وعاطفة التدين تواجه - في هذه الأونة - أزمات خانقة ، والروحانية التي تدعو إليها
الأديان . تحتاج إلى بيان ينفي عنها ما لازمها ، من تشويه وتحريف على مر العصور .

والإسلام - وهو الدين الجامع لما قبله ، المانع لما بعده - واقع تحت سلطان حفنة من الفراعنة والقوارين ، جعلوا انتفاع الناس منه محدوداً جداً .

فأية روحانية تبقى في الشرق بعد ذلك؟ لا شيء!

الحقيقة ، إن الإنسان في الشرق ، هو نفسه إنسان الغرب ، إن الروحية والمادية هنا أو هناك ، تخضع لعناصر البيئة وأحوال المجتمع ، وهي عناصر وأحوال يمكن الهيمنة عليها ، والتصريف فيها ، وتكوين معادلات «جبرية» تنتج المادية في الشرق ، أو الروحانية في الغرب ، إن شئت .. !

ليس تفكيرًا مادياً :

يتوهם ذوو الآفاق المغلقة ، أن إدخال العوامل الاقتصادية في الرذائل والفضائل ، جنوح إلى التفكير الشيوعي القائم على النظرة المادية المختصة للحياة! واستهانة بالقوى الروحية السامية ، التي يجب التعويل عليها في عصمة الإنسان من السقوط في مهاوى الإثم والعصيان .

وهذا التوهם خاطئ .

فلسنا نغض من قيمة الجانب الروحاني ، في تدعيم معنويات الإنسان ، وحفظ كيان الأُم .

يُبَدِّلُ أَنْ ذَلِكَ لَا يَعْنِي إِغْفَالَ الْمَشَاهِدِ الْمَمْوَسِ ، مِنْ تَوْلِدِ الرَّذَائِلِ الْخَطِيرَةِ فِي الْجَمَعَاتِ ، الْمَصَابَةِ بِالْعَوْزِ وَالْأَحْتِيَاجِ !!

بل إن الأضطراب الاقتصادي ، في أحوال كثيرة جداً قد يكون السبب الأوحد في نشوء الرذيلة وشيوعها .

وقد بيَّنَ ذلك نبِيُّ الإسلام - صلوات الله عليه وسلم - في قصة رمزية صغيرة .

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال رجل : لأتصدقن بصدقة؟ فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق!

لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية! فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية!

لأتصدقن بصدقة ، فخرج فوضعها في يد غني ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غني .

قال الرجل : اللهم لك الحمد على سارق ، وزانية ، وغنى !
فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته .
وأما زانية فلعلها أن تستعف عن زناها .
وأما غنى فلعله يعتبر ، فينفق مما أعطاه الله ^(١) . . .

هذه القصة تشير إلى أن الفقر قد يُلْجِئ إلى السرقة والزنا . وأن علاج هذه الجرائم ، يكون بمحو العلل التي تخضُّت عنها .

وليس القول بهذا شيوعية في التفكير ، ولا مادية في الحياة .
وقد ينشأ الاضطراب الخلقي عن الاضطراب الاقتصادي ، ثم تبقى النفس صريعة
له أمدًا طويلاً ، حتى يتغلغل فيها وتعور جذوره في طبيعتها .

إذا انزاحت الأسباب الاقتصادية المخرجة ، بقيت النفس على الحال الأثيمية التي
اكتسبتها ، فلا تخلُّ عنها ، إلا بعد جهاد طويل !!

وهذا إن دل على شيء فعلى ضرورة اليقظة الكاملة للعوامل المستقرة في البيئة ،
حتى لا تفقد النفس طهارتها إلى الأبد بسببها ، وتصبح النصائح والإرشادات عديمة
الجدوى ، أو قليلة الغناء .

إن الاضطراب الاقتصادي ، يورث الأخلاق اضطراباً شنيعاً . بل يجعل الأجيال
المتعاقبة تتوارث أنواعاً شتى ، من أخبث الأمراض النفسية ، والأفاف العقلية الوخيمة
النتائج ، بعيدة الأخطار .

وكم تظن عمق الفجوة بين بيوت العبادة ، ونواحي المجتمع ، إذا كانت هذه توحى
إلى الخير بأقوالها ، وهذه توحى إلى الشر بأحوالها ؟

إن العلاقة بين الاثنين ، هي علاقة بالخيال !!

فبينما القول البليغ يهتف في المساجد : أَنْ فِرُّوا إِلَى اللَّهِ! إِذَا النَّاسُ مُشَقِّلُونَ فِي
الْجَمَعَ بِقِيَودِ الْحَاجَةِ الْمُلْحَّةِ ، تَحْبِسُهُمْ فِي سُجُونِ الْفَرْسَادَاتِ الْمُنْذَلَةِ ، وَالْعَذَابِ
الْأَلِيمِ ، فَلَا يُسْتَطِعُونَ عَنْهَا فَرَارًا .
وَوَدُّوا لَوْ يُسْتَطِعُونَ !!

وال الحديث الذي يلمح فيه نبى الإسلام : إلى أن المعاصي قد توقع فيها الضوابئ
المالية ، حديث يضع أيدينا على طرف الحقيقة ، التي بدأ الناس يفهمونها الآن كاملاً .

(١) صحيح . أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد وابن ماجه في سننه تحت رقم ٤٣٦ صحيح الجامع .

الاستعمار الداخلى يُمهد للاستعمار الخارجى

كان الشرق الأوسط مستعمرات مقسمة بين الروم والفرس قبل انتشار فجر الرسالة الإسلامية فلما ظهر الإسلام بدأ حرب تحرير شاملة ضد المغرين على أهل هذه البلاد ..

وكان عهد عمر بن الخطاب نقلة حاسمة في سير التاريخ البشري فقد تلاشت دولة الفرس ، وزالت معالمها ، وتزلزلت أركان دولة الروم ، وتقلصت رقعتها ، وظلت الضربات تنهال عليها - بعد - حتى لحقت بأختها بعد أيام طوال ..

والفاروق القائد الذي صنع هذا الصنيع الخارق جدير بأن تدرس نواحيه المختلفة ، وأن تعنى الأجيال المعاصرة أصول عقريته الفذة .

ونحب أن نلقي نظرة على الحالة الداخلية التي ساندت حروب التحرير أو في نطاق أخص نحب أن نعرف معالم العدل الاجتماعي لأيام عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وصلة المسلمين بعضهم ببعض ، وصلة الدولة بجماهير الناس ، وكيف كفلت حاجاتهم وسدت ثغراتهم وقوت ضعيفهم وأسعفت محتاجهم ، وطاردت اليساء والضراء في كل مكان ، على أساس أن ذلك صميم رسالتها ، وجواهر وظيفتها .

وكان عمر بن الخطاب أخبر الناس بأثر الأوضاع الاقتصادية في الأخلاق ، وضغطها المباشر وغير المباشر على سلوك الأفراد والجماعات ، وتدبر هذه الوصية التي وجهها إلى ولاته : « ألا تضرروهم فتنلواهم ، ولا تجتثرواهم فتفتثرواهم ، ولا تعنواهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلواهم الفيافي فتضييعواهم » .

ومعنى التجمير إطالة غربة الجيش بعيداً عن الزوجات والأولاد ، فقد يؤدي ذلك إلى الانحراف الجنسي ، واعتياد المعصية .

وهذا إرشاد خليفة يعرف الواقع ، ويعرف بما ينشأ عنه .

والناس يحبون أن تchan حقوقهم ، وأن يحيوا مفهوم الكرامة ، فإذا وجدوا أنهم - في ظل نظام ما - يحاصرون الضيم والهوان ، ويفقدون العزة والاستقرار هان عليهم أمر الإيمان ، ويرد حماسهم له ، بل سهل عليهم تركه .

والإلحاد غالباً ما نشأ في البيئات التي عجز الإيمان عن الوفاء فيها بالتزاماته المادية وأهمل الوصاية على حقوق الأفراد والجماعات .

وهذا ما يرفضه عمر كل الرفض ..

قدم الأحنف بن قيس في وفد من أهل العراق ، في يوم صائف شديد الحر ، وعمر معتجر بعباءة يداوى بعيّراً من إبل الصدقة ، فقال : « يا أحنف ، ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير ، فإنه لمن إبل الصدقة ، وفيه حق اليتيم والمسكين والأرملة .

فقال رجل من القوم يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، فهلا أمرت عبداً من العبيد
فبكفيك هذا؟!

فقال عمر: وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحن؟! إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد المسلمين يجب عليه لهم مثل ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة ». .

وبهذه السيرة الواضحة شرح أمير المؤمنين وظيفة الدولة مع الشعب ، وسهرها الواجب على رعايته وضمان مصالحه وتوفير ضروراته .

ولقد كان - عَزَّى اللهُ - مثالاً فريداً في هذا المجال؛ ولا بأس أن ننقل من تاريخه هذه النماذج.

روى زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال : «خرجنا مع عمر بن الخطاب - عَنْهُ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَهُ - إلى حرة واقم » حتى إذا كنا بـ « صرار » إذ نار توقد .

فقال: يا أسلم! إنني لأرى ه هنا ركباً قد ضربهم الليل والبرد. انطلق بنا.

فخر جنا نهروں حتی دنونا منہم ، فإذا امرأة معها صبيان صغار وقليل منصوبة على نار وصبيانها يتضاغون .

فقال : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ؛ وكره أن يقول : يا أصحاب النار .

فقالت : عليك السلام . فقال أدنو ؟ فقالت أدن بخير أو دع .

فَدَنَا وَقَالَ : مَا بِالْكُمْ؟ فَقَالَتْ : قَدْ ضَرَبْنَا الْبَرْدَ وَاللَّيلَ !

فقال : وما بال الصبية يتضاغون؟ قالت : الجوع .

فقال : فأي شيء في هذا القدر؟ قالت : ما أسكنته به حتى يناموا ، والله يبیننا وبين عمر .

قال : أى رحمك الله ، وما يدرى عمر بكم ؟!

قالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟! ...

فأقبل عمر على أسلم فقال : انطلق بنا ، فانطلقنا نهروه حتى أتينا دار الدقيق ،
فأخرج عدلاً من دقيق وكبة من شحم ، فقال : احمله على !!
فقلت : أنا أحمله عنك .

قال : أنت تحمل وزري يوم القيمة ، لا ألم لك ! .
فحملته عليه . وانطلقت معه إليها نهروه ، فألقى ذلك عندها .
وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول : ذري على وأنا أحرك لك .
وجعل ينفخ تحت القدر ثم أنزلها .
قال : أبغنى شيئاً ، فأتته بصفحة فأفرغها فيها ثم جعل يقول لها .
أعطيهم وأنا أسطح لهم .
فلم يزل حتى شبعوا ، وترك عندها فضل ذلك .
وقام وقمت معه .

فجعلت تقول جزاك الله خيراً ... كنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين .
فيقول : قولى خيراً !! .

إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله .
ثم تتحى ناحية عنها ثم استقبلها فربض مربضاً .
فقلت له : لك شأن غير هذا ...
فما كلامي حتى رأيت الصبية يصطرون ، ثم ناموا وهدأوا .
قال : يا أسلم ! إن الجوع أسرهم وأبكاهم ، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما
رأيت !! .

وذات ليلة كان يعس ، فإذا هو ببيت مبني من شعر لم يكن بالأمس .
فدنى منه فسمع أنين امرأة ورأى رجلاً قاعداً ، فدنا منه فسلم عليه ثم قال : من
الرجل ؟ .

قال : رجل من أهل البدية أتيت أمير المؤمنين أصيبي من فضله .
قال : فما هذا الصوت الذي أسمع في البيت ؟ .

فقال : انطلق رحمك الله حاجتك .

فقال : على ذلك ما هو؟ ، فقال : امرأة تختضن .

فقال : هل عندها أحد؟ فقال : لا .

وانطلق عمر حتى أتى منزله ، فقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبي طالب : هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ .

قالت : وما هو؟ ، فقال : امرأة غريبة وليس عندها أحد .

فقالت : نعم إن شئت .

قال : فخذلي ما يصلح المرأة لولادتها من الخرق والدهن وجئيني ببرمة شحم وحبوب .
فجاءت بكل ذلك ، فقال : انطلق ! .

وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى إلى الباب ، فقال لها : ادخلني إلى المرأة وجاء حتى قعد إلى الرجل فقال له : أوقد لي ناراً ، وأوقد تحت البرمة ناراً حتى أنضجها وولدت المرأة فقالت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام .

فلما سمع الرجل بأمير المؤمنين ... هابه فجعل يتنحى عنه .

فقال : مكانك كما أنت . فحمل عمر البرمة ووضعها على الباب ثم قال لامرأته :
شبعيها .

ففعلت ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب ، فقام عمر فوضعها بين يدي الرجل ، فقال : كل وريحك ، فإنك قد سهرت من الليل .

وقال له : إذا كان غد فائتنا نأمر لك بما يصلحك .

* * *

تلك صورة الحكم الأمين عندما يتحسس كل ثغرة في المجتمع فيسدها ، وكل محنـة فيزيـلها ، فـالـأـفـرـادـ فـيـ ظـلـهـ يـحـسـونـ أـنـ الـحـاـكـمـ سـاعـدـهـمـ الـأـمـيـنـ فـيـ تـحـقـيقـ الـخـيـرـ وـدـفـعـ الـغـيـرـ وـصـونـ الـشـرـفـ .

هـذـاـ اللـونـ مـنـ الـحـكـمـ هـوـ الـذـىـ يـقـيمـهـ الإـسـلـامـ ،ـ وـيـجـعـلـ حـمـلـ عـبـئـهـ عـبـادـةـ ،ـ وـتـوـقـيرـ صـاحـبـهـ تـقـوىـ . . .

أـمـاـ أـنـ يـسـطـوـ نـاسـ عـلـىـ مـقـالـيـدـ الـأـمـرـ لـيـجـعـلـوـاـ مـنـ ذـوـاتـهـمـ أـصـنـاـمـ مـرـهـوـبـةـ وـمـنـ حـقـوقـ النـاسـ لـبـانـاتـ مـرـغـوبـةـ فـهـذـاـ هـوـ الـكـفـرـ . .

ولسنا نقول ذلك مبالغة ولا مجازفة ، فإن المذاهب الاجتماعية الملحدة لم تشق طريقها في هذه الحياة إلا عند شلل الدين عن حماية الحقوق وصيانة الإنسانية !!

عندما وقعت هذه المخنة النفسية المذلة جاء من يقول :

ما دمت محترماً حقي فأنت أخرى
أمنت بالله أم أمنت بالحجر !!
هكذا يذوب الإيمان وتسقط رايته !!

وذلك ما كان عمر بن الخطاب يحذره عندما جاهد لتكون الدولة مسؤولة عن إطعام الناس من جوع وتأمينهم من خوف وعندما قال كلمته الكبيرة : لا تمنعوه حقوقهم فتكفروهم !!

ويرى عنه كذلك هذا القول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، والله لئن عشت لهم ليصلن الراعي في صناعة حظه من هذا المال ». .

وهذا الكلام الذي قاله عمر ، إن كان من عند نفسه ، فنعمًا هو ! وجدير به أن يكون دينًا للناس ، إذ لا قيام ل الدين ، أو خلق ، إلا في ظله كما أوضحتنا .

وإن كان من وحى الدين الذي يعتقد - وهو ما نعتقد - فلا موضع لخلاف في فهم دلالته ، وتحقيق أغراضه .

فهو يتضمن دستوراً خطيراً من أهم دساتير الحرية الاجتماعية والاقتصادية وحصانة قوية من الحصانات التي تتوافر للشعوب ، فتقىها أوزار الظلم الاجتماعي وظلماء الاستعمار الداخلى ..

ونحن أحوج الناس إلى فهم هذه الحقائق ، جملةً وتفصيلاً .

نحن الذين نسينا ذلك دهراً ، فوقعنا في مخالب المستعمرين الباطشة .

إن الاستعمار يُبْقى للناس صور العبادات الميتة ، إذ لا غنا لهم فيها ، ولا خطر عليه منها ، ويساعد على جعل الدين مقطوع الصلة بكرامة الإنسان الفردية والاجتماعية والسياسية .

فالدين - في نظره - يجب أن يعادى هذه الحقوق المقررة بالفطرة ، أو أن يكون عوناً لمن ينتهكونها ! أو على الأقل ، يجب أن يكون محايداً بإزائهم وإزائها .

أما أن يؤيد الدين هذه الحقوق ، وأن يحضر على النداء بها ، وأن يجعل في مقدمة الشهداء من يموتون فداء لها ، فلا ..

وعلى هذا المبدأ المجرم ، قام الاستعمار الداخلى فى الشرق ، فأسلم الشعوب لقمة سائفة ، وغنية باردة ، للغزوة الأوروبية الذين استولواً على كل شيء واستغلوا مصلحتهم قبل أى شيء .

ونعني بالاستعمار الداخلى فقدان الأم القدرة على حكم نفسها بن تختار من أبنائها ، وسقوط أزمة الحكم فى أكثر الأحيان بين أناس تقتلهم الجماهير ، وتتمنى زوالهم لأنهم يؤثرون شهواتهم على مصالحها ، ولا يملكون كفاية حقيقية للبقاء فى مناصبهم ، ومن ثم فهم يستدلون حكمهم بالإرهاب والاحتيال وغير ذلك ، ونجاح الاستعمار الغربى فى أقطار الشرق مهدت له هذه الأحوال .

ثم جاء دور الأحرار فى الكفاح . واسترداد ما ضاع ، فمن الغفلة أن ننسى دروس الماضي وعبره : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ^(١) .

ولقد لدغتنا المظالم فى الداخل فسممت دماءنا ، وهدّت قوانا ، وسبّبت لنا هزائم مريرة ، فيجب ألا نمكّن لها من العودة أبداً .

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهِرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مَلَتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْدَأُوكُمْ﴾ ^(٢) .

الدين والاستعمار :

للدين مع الاستعمار العالمي ، موقف حاسم ، لا تجد فيه إلا الخصومة الظاهرة والاستنكار البالغ .

فقد وضع الدين معالم ثابتة للإخاء الإنساني ، الذى يجب أن يسود بين شعوب الأرض ، إذ رفع من شأن أبناء آدم جمِيعاً ، وصان لهم كرامتهم ، ونوه بأن بداية خلقهم انبثقت من الله - جل شأنه - ، وأن الله - عز وجل - ، أَسْجَدَ ملائكته لأبيهم ، ثم خصهم بفنون من الموهب والملكات ، أعلَّت شأنهم بين سائر الموجودات :

﴿وَلَقَدْ كَرَّمَنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيَّابَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ^(٣) .

ولا شك أن الناس يختلفون فيما أوتوا من خصائص نفسية وعقلية .

(١) صحيح عن أبي هريرة أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم ويرقم ٧٧٧٩ في صحيح الجامع .

(٢) الإسراء آية ٢٠ .

ولكن لا يسوغ أن يكون هذا الاختلاف باباً إلى التعادى والتناكر ، بل يجب أن يكون أساساً لتعاون بعيد المدى ، يقف القوىُ فيه بجانب الضعيف ويأخذ العالمُ فيه بيد الجاهل ، ويفيض المكثر فيه على المقل .

أما أن يأكل القوىُ الضعيف ، ويستعلى العالمُ على الجاهل ، ويستعبد الغنى الفقير ؛ أما أن يشعر كل ذي فضل من جاه أو مال أو سلطان ، بأن له حق البغى في الأرض ، وجعل أهلها شيئاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيى نسائهم .. فهذا فساد عريض ، وانتكاس بقيمة الإنسان ومنزلته ، وردها إلى قوانين الغابات وطبائع الوحش !!

وقد انطبع الاستعمار العالمي بهذا الطابع الأسود من قديم العصور ، واحمررتُ جوانب التاريخ البشري بدماء الضحايا المسفوكة ، إشباعاً للغرائز الخسيسة ، والمظالم الفادحة . ولم تتوّرَّ الحضارة الغربية الأخيرة - برغم تقدمها العلمي الهائل - عن الانزلاق في هذا المنحدر الدنـىء ، بل لعلها فاقت من قبلها في هذا المضمار .

فهي تقاتل الشعوب المتطلعة إلى حريتها ، وتحتهد في حرمانها ، من أسباب العلم والقوة والنهوض .

وقد أبادت أجناساً في كثير من البلاد المنكودة الحظ التي سقطت في يدها . . . وهي لا تريد إلا جعل المستعمرات الشاسعة ، التي تضم أكثر من نصف البشر ، حقول استغلال ، ثم اتخاذ أهلها خدماً ، يعملون لغيرهم ، ويكتحرون لسادتهم المتطفين الدخاء .

ويعتقد لفيف من المفكرين أن نهاية الاستعمار موشكة ، وأنه سوف يضطر لترك الأم التي بليت به ، راداً إليها حريتها التي سلبها إياها من قبل .

ونحن لا نؤيد هذه النظرة المتفائلة ، ولا نحسب ضمائر الأقوياء تشب إلى رشدها من تلقاء نفسها .

نعم قد تنسحب جيوش الاحتلال ، وتحتفى السيادة المباشرة ، غير أن أوضاعاً أخرى ستحل محلها فوراً ، وتبقى الأم الضعيفة مقودة بخيوط خفية إلى السادة الأولين أنفسهم أو إلى بديل لا يقل عنهم لؤماً وضراوة .

إن الاستعمار قد يتطور ويبدل أزياءه وفق الأحوال التي تلائمـه ، ولكنـه باقـ ما بـقـى حق ضعيف وباطـل قـوى .

ومن المهم أن نعرف التغير الذي يطرأ على أشكال الاستعمار ، إنه ليس صحوة ضمير .. ولا رجعة تائب؟ .. إنه تنازع الأقوياء على السيطرة وحذر بعضهم من البعض الآخر ونشوء فلسفات إنسانية ومذاهب اجتماعية أكثرت اللغط حول الإنسان وكرامات الشعوب ، ثم نشأة قوى متحررة داخل الأقطار المفتوحة نفسها .. ذلك كله جعل المستعمرين يلجأون إلى الحيلة ، يفكرون أن يحتلوا الشعوب بأسلوب بعد أن انكشف أسلوب! .

أما الإصرار على استنزاف الأقطار المختلفة لمصلحة الجنس الغالب ، فذاك مالا شك فيه .

ودول أوروبا وأمريكا كقطيع من الذئاب يعدو هنا وهنالك بحثاً عن الفرائس ، وربما كان من مصلحة الشعوب الوداعة أن يستغل هؤلاء بأنفسهم في حروب المطامع التي تدور بينهم حيناً بعد حين .

وقد أتت الحضارة الأوروبية من هذه الناحية ، فلم يزل التنافس الاستعماري مثاراً قتال متواصل ، وحروب نرجو أن تكون كما قيل :

﴿ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾⁽¹⁾ .

وقاية :

غير أن الدين الذي يعرف غواييل المرض لا يكتفى بالتحذير منه فقط بل يُحَصّن أبناءه ضده ، ليكونوا بأمن من فتكه وبطشه .

والحقيقة أن التدين الصحيح عدو الاستعمار الأول ، لا يجد الاستعمار عدواً أمضى منه سلاحاً في محاربته ، واستئصال شأفتة .

حَصَنَ الدين أبناءه ضد هذا الوباء وجعلهم - لو آمنوا بالله حقاً - أقرب الناس إلى التمتع بحرياتهم المطلقة ، وحقوقهم الكاملة ، وأشد الناس رفضاً للضيّم ، وثوراناً عليه!! وأول ما يؤسسه الدين لضمان ذلك المسلك ، تكوين البيئة الحرة في الأمة تكونناً بين العالم ، واضح الخطوط .

ولإيجاد هذه البيئة ، يجب توافر عناصر ثلاثة هامة :

(1) سورة الأحقاف آية ٢٥ .

(١) الكرامة الفردية:

وتقوم على حفظ حقوق الإنسان ، وحرم دمه وماله وعرضه ؛ والارتفاع بها إلى مرتبة القدسية ، حتى إن النبي اعتبر حرمة المؤمن أقدس من حرمة الكعبة ، التي يتوجه إليها المسلمون في صلواتهم ، وفسر حرمتها ، بأنها حرمة دمه وماله وعرضه .

ثم حفظ للفرد شخصيته المعنوية بعد المحافظة على شخصيته المادية ، فطالبه بعزة النفس ، وأوصاه أن يستمسك بها ، وشرع من العقائد والتعاليم ما يؤكدها ، واستنكر أن تكون القلة المادية سبيلاً للنيل من كرامة إنسان أو إذلال جانبه :

وفي ذلك يسوق القرآن قصة أقوام ارتكبوا هذه المحاولة :

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُفْقِدُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلَلَّهُ خَرَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجُنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾١﴾ .

وقد استقصى الدين أسباب هذه الكرامة الفردية ، حتى إنه لينصح المؤمن لا يعرض نفسه لنوع من الانكسار والغضاضة ، إذا هو أخذ على نفسه تنفيذ أمر لا يقدر عليه ، ثم ظهر عجزه عنه .

فينصح النبي - صلوات الله عليه وسلم - : « لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَذْلِلْ نَفْسَهُ قَالُوا : وَكَيْفَ يَذْلِلْ نَفْسَهُ؟ قَالَ : يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ » ^(٢) !

وهذه شدة إحساس بالكرامة الفردية ، ضرورة تدعيمها بالسلوك القويم : « إِيَّاكَ وَمَا يُعَتَذِّرُ مِنْهُ » .

(٢) الكرامة الاجتماعية:

وتقوم على المساواة بين الطبقات ، وإقامة المواريثين القسط بينها ، وجعل التكافل المادى والأدبى ، هو الرابط الذى يجمع شتاها ، ويركز قوائماً ، فلا تكون النعمة احتكاراً لطائفة ، ويكون الحرمان نصيب أخرى .

إذ إن هذه النعمة مصدر ضعف عام ، ومثار سخط مكتوم ، تجعل أبناء الوطن الواحد لا يتحمّسون للدفاع عنه ، ماداموا ليسوا سواء في الانتفاع بخيره ..

(١) سورة المنافقون آية ٧ ، ٨ .

(٢) صحيح عن حذيفة .. أخرجه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه رقم ٧٧٩٧ صحيح الجامع .

ولأن الأشقياء في بلادهم ، المتبرمين بأوضاعهم ، سيتركون مؤنة الدفاع عنه ، لمن يأكل خيره . وقد يما قال شاعر :

لَا أَذُوذُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ
قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرَةٍ

وهذه الحقيقة ، هي سر الفتور والبرود ، الذي يسود الجماهير في الأمم المستعمرة أو الشبيهة بالمستعمرة ، فلابد من محاربة الاستعمار الداخلي ، حتى لا يكون هناك مجال لأى تدخل خارجي . وحتى تهب الشعوب على قلب رجل واحد بإزاء أي هجوم يوجه إليها من أعدائها الآخرين ! .

وقد جعل الدين الموازنة بين طبقات الأمة ، وعدم استرقة واحدة لأخرى ، من حقيقة الإيمان ، وقرنها بواجب العبودية لله وحده .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(١) .

ومعنى الربوبية لغير الله هو ما قدمنا .

فقد كان رجال الدين طبقة تتمم طبقة المترفين ، وتقاسمها بذخها ، تفتات على جمهور الشعب في ذلك .

﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهَبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾^(٢) .

فوصف القرآن هذه الحال وصفاً صحيحاً مجرداً ، ناعياً على الناس وقوعه منهم وفيهم :

﴿ اتَّخَذُوا أَحَبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(٣) .

(٣) الكراهة السياسية :

وتقوم على إيجاد الحكومة المعقولة المعتدلة ، التي يشعر أفرادها ، بأنهم أجراء الشعب وخدماته ، لاسادته وجلادوه .

(٢) و (٣) سورة التوبه آية ٣٤ ، ٣١ .

(١) سورة آل عمران آية ٦٤ .

فإن الحاكم المستبد ، الذى تنتهى تصرفاته بإذلال الشعب ، واحتقار رأيه ، وكتب رغائبه ، هو الحاكم الذى يهدى تمهيداً واسع النطاق للاستعمار ، ويفتح أبواب البلاد على مصراعيها ، للعداون الأجنبى .

وما لا ريب فيه ، أن سياسات الحكومة فى الداخل توطئ الظهور لقبول السياسات من الخارج !

ومتى انحنت القمامات مَرَّةً مَرَّةً لمن يريد ذلك من الحكام المجرمين ، انحنى مرتين ومرة ، لمن يشتهى ذلك من طغاة المستعمرين !

ومن ثمَّ وضع الدين مبدأ القصاص من الحاكم ، حتى لا يجرؤ على ضرب الناس كلما بدا له !

وقد بدأ النبي - صلوات الله عليه وسلم - فطبقَ المبدأ على نفسه ، حتى تكون منه الأسوة الحسنة .

بينما كان رسول الله ﷺ يقسم شيئاً إذ أكبَّ عليه رجل - زاحمه وضايقه - فطعنه الرسول بُرْجُونَ كأنه معه ، فتألم الرجل ، فقال له الرسول : تعالَ فاستقدِّ مني - اقتض - فقال : بل عفوت يا رسول الله .

ولما كان ظلم الحاكم واستباحته للرعية خطيرًا في نتائجه ، ويعتبر تهديدًا لسلامة الدولة أرشد عمر بن الخطاب جمهور المسلمين على عهده إلى حقوقهم كاملة فقال : «إنِّي لَمْ أُبَعِّثْ عَمَالِي لِيُضْرِبُوا جَلُودَكُمْ، وَلَا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ فَمَنْ فَعَلَ بِهِ ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ لِيَقْتَصُّ مِنْهُ» .

فقال عمرو بن العاص معترضًا : «لو أن رجلاً أدب بعض رعيته أتقضه منه؟!»
فقال عمر : «إِيَّ وَالذِّي نَفْسِي بِيَدِهِ، أَقْصِهُ مِنْهُ . وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه » .

وقد طبق عمر - رضي الله عنه - هذه القاعدة في حزم يدل على بالغ اهتمامه بها ، عندما أراد لذلك المصرى الأبى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص حاكم مصر ، أن يقتضى من عمرو نفسه .

وقال كلمته الخالدة التى يزهو بها التاريخ : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاطهم أحراً» .

وكتب عدى بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزىز وهو عامل له :

.. أما بعد فإن أنساً قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج ، حتى يسمهم شيء من العذاب .

فكتب إليه عمر : أما بعد ، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر ، كأنى جنّة لك من عذاب الله ، وكأن رضائى ينجيك من سخط الله ! - إذا أتاك كتابى هذا ، فمن أعطاك ما قبله عفواً وإلا فأحلفه فوالله لأن يلقوا الله بجنایاتهم أحب إلى من ألقاه بعذابهم والسلام ..

وبهذه الوصاة رفض الخليفة الراشد مبدأ الضغط على الجمّهور ، وإهانته حتى يدفع الضرائب المستحقة عليه ! .

فهل تعرف ذلك حكومات شرقية كثيرة؟! ..

وروى أن قوماً من الكلاعين ، سرق لهم متاع ، فاتهموا أنساً من الحاكمة فأتوا بهم النعمان بن بشير - رضي الله عنه - ، فحبسهم أياماً ، ثم خلي سبيلهم .

فأتوا النعمان وقالوا له : خليت سبيلهم بغير ضرب ولا امتحان؟

فقال النعمان ما شئتم؟ إن شئتم ضربتهم ، فإن خرج متاعكم فذاك ، وإن أخذت لهم من ظهوركم مثل ما أخذت من ظهورهم .

قالوا : هذا حكمك؟! ، فقال : هذا حكم الله ورسوله .

وبهذا رفض الصحابي الجليل مبدأ تعذيب المتهمن ، لحملهم على الاعتراف .

فهل تجد من هذه الأمثلة وغيرها شيئاً يعين الأمّراء والولاة على الاستهانة بحقوق الناس وحرياتهم .

* * *

ومع هذا الهدى الواضح ، في تقرير الكرامة السياسية ، فقد نكبَ الشرق بحكومات قصمتْ ظهره من طول ما أهانَته وأذاقَتهُ الهوان ومن طول ما أدعى أصحابها زوراً ، وانتفحوا غروراً ، فضاعوا وأضاعوا ، وضلوا وأضلوا .

لقد أبى عثمان بن عفان - وهو خليفة صحيح البيعة راشد السيرة - أن يصدر الأوامر بضرب الجماهير التي تأليت ضده وأحاطت بقصره .

كأنه - رضي الله عنه - كره أن يستنِ إعمال السوط في ظهور الناس ، أو يلجم إلى استدامة سلطانه بالسيف ، ومات الخليفة الراشد مستمسكاً بهذه السياسة .

ومع ذلك فإن عشرات الحكومات ظهرت في الشرق الإسلامي لا تعتمد في بقائها على أثارة من حب ، أو رائحة من إعجاز ، إنها ما تعتمد إلا على السيف وحده في بقائها . وما تتوسل بالحكم إلا لضمان مصالحها الخاصة!! .

وكم تظن عمق الفجوة بين هؤلاء الحكام وبين أنهم المقهورة؟

لذلك قلنا : إن أمثال هذه السلطات استعمار داخلي ، وإن ما يتولد في ظلها من ذل وقطيعة وبغضاء هو المهد الطبيعى للاستعمار الخارجى .

ضرورات :

شرحنا آنفا معاالم البيئة الحرة كما رسمها الدين ، أتراء نسى منها عنصراً ، أو أهمل منها مظهراً؟ كلا .

غاية ما هنالك أنا نجدها مطحورة في بطون الكتب ، لاتطفر من يعمل لها .

وأنه وجد من رجال الدين - أعني الرجال الذين مثلوا الأديان كلها ، في كل عصر ومصر - من خرج عن هذه الحدود ، مثل ما خرج - تماماً - الرجال المدنيون عن مبادئ الحرية والإخاء والمساواة التي نادوا بها ، ثم كفروا بتطبيقها ، في أكثر بلاد الدنيا ، التي استمعت لهم ، وخدعت بقولهم! .

فالآفة ليست في الدين . ولا في المبادئ العظيمة القريبة من حقيقته .

إنما الآفة في النفاق السياسي ، الذي ضلل الإنسانية عن غايتها ، والذي أدار رحى المطامع ، على أكباد الأمم المسكينة فمزقتها !

وهذا يوجب على الجماهير ، أن تستيقظ لتضع حدأ لهذا الافتياط الحقير وهذا الاستهتار الكبير!! .

وفي العدالة الاجتماعية ، والديمقراطية السياسية ، ضمان لتكوين البيئة الحرة ، وتنشئة الأفراد على الاستقلال الذاتي ، وعشق الحرية الكاملة ، ورفض العبودية إلا لله وحده! .

وحاجة الدين إلى هذه المعانى - ليبقى - كحاجة الإنسان إلى الهواء ليحيا ، وحاجة السمك إلى الماء ليعيش .

فإذا ضاعت الكرامة الفردية والاجتماعية والسياسية ، لأمة من الأمم ، ثم قيل : إن الدين باق فيها ، فاعلم أن ما بقى ليس إلا جثثاً الهامد ، وملامحه الميتة!

وعندما يشيع الغدر بالأئم ، واسترقاق الأحرار ، وأكل أجور الكادحين من العمال والفلاحين ، فلا موضع بعدئذ إلا لسخط الله وبطشه .

ومن هنا جاء في الحديث القدسي عن الله عز وجل : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيمة - ومن كنت خصمه خصمته - رجل أعطى بي ثم غدر - أعطى عهداً أو حكماً أو مالاً - ورجل باع حرراً وأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى حقه من العمل ، ولم يوفه أجراه » ^(١) .

بلى ، فتلك أمور يبرأ منها الدين .

ولا جرم أنه يقر كل نظام يحول دون وقوعها ، ويقى الناس غوائلها ! إنه لا يقره فحسب ، بل يدعو إليه ويناصره .

* * *

إنه لأشىء ينال من مناعة البلاد وينقص من قدرتها على المقاومة الرائعة ، كفساد النفوس والأوضاع ، وضياع مظاهر العدالة ، واحتلال موازين الاقتصاد ، وانقسام الشعب إلى طوائف ، أكثرها مضيق منهوك ، وأقلها يمرح في نعيم الملوك . !!

ومثل هذه البلاد تكاد لا تنهال على أبوابها مطارق الفتح الخارجي والعدوان الأجنبي حتى تنهار الأبواب وتذل الرقاب .

وكأنما يجعل الله ذلك عقاباً لها على تفريطها في أمرها ، وعدم تنظيمها لشئونها الداخلية .

وقد ذكر القرآن أن بنى إسرائيل سلط عليهم أعداؤهم ، واستعمرت بلادهم لهذا السبب :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُمُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ^(٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَيْ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ ^(٢) .

وهكذا نرى التعالي الباطل والنظام الأثيم يجر على البلاد ويلات الاحتلال ويعتبر ذريعة لوقعها في براثنه .

ثم يذكر القرآن بعدئذ المرة الثانية لسقوط البلاد في يد أعدائها و تعرضها لغزوهم ..

(١) عن أبي هريرة في البخاري ومسند الإمام أحمد وقيل ضعيف تحت ٤٠٥٠ في ضعيف الجامع .

(٢) الإسراء : ٤ ، ٥ .

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوْرُوا وُجُوهُكُمْ وَلَيَدْخُلُوا الْمَسْجَدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَبَيِّنَا﴾ (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ (١).

وهذا التحذير الرادع ، والتخويف الواضح ، ليس قسوة من القدر على الأم التي تختَلُ فتحتلُ ، والتي يسهل الظلم فيها فيسهل الظلم عليها ..

فإن هذه الأم أعضاء مريضة ، في جسم العالم الإنساني الحى . ولابد من علاجها لتصح حالة العالم كله .

وقد تكفل القدر بهذا : ﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ
اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢) .

وما يتصل بالكرامة الاجتماعية للأمة ، أن يتقرر فيها مبدأ تكافؤ الفرص وإتاحة العلم والعمل والمغانم للجميع ، على سواء ...

وهذا من أوليات العدالة ، التي شرع الله لعباده .

وما يذكر أن عمر بن الخطاب أقر هذا المبدأ على أولاده ، ورفض أن يتميز أولاد أمير المؤمنين على سائر المؤمنين .

فقد أرسل أبو موسى الأشعري - لما كان واليًا للكوفة - بعض الأموال الحكومية إلى عمر ، مع ابنيه له ، كانوا مجندين في الجيش القافل من الكوفة إلى المدينة ، وأراد أبو موسى أن ينفع ابني عمر من هذا المال المرسل إلى أبيهما ، فدللهما على شراء بعض الماصيل الرخيصة في الكوفة ، ليبيعها بثمن أغلى في المدينة ، ويأخذان لنفسيهما الفرق !

ولكن عمر استولى على المال المرسل ، وقاسمهما الربح الزائد ، لأن هذه الفرصة ما كانت لتناح لرجال الجيش على سواء ، ولا لابنيه بصفتهما الشخصية !

إنما أتيحت لهما ، لأنهما من بيت الحكم ، والربح من هذا الطريق لا يجوز !!

وهذا التصرف من عمر شدة إحساس منه بضرورة تكافؤ الفرص بين المسلمين ، وضرورة قطع الطريق ، على الوسائل المريبة في الاستغلال ، وجر المنافع الشخصية ، وتسليط الوساطات المغرضة ، لاقتناص الفرص السانحة ، من أية سبيل ، وبأى ثمن .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥١ .

(١) سورة الإسراء آية ٧ ، ٨ .

أوضاعنا القلقة

مقارنات :

لاندرى ، هل سيظل العمران على وجه الأرض قرناً آخر أم لا؟ ولا ندرى ما سوف تكون عليه أحوال الشرق الإسلامي ، وأحوال غيره ، من أم الأرض الأخرى .

ولكننا نكتب وصفاً مقارناً للأحوال العامة ، التي نعيش اليوم فيها ، حتى يدرك أخلاقنا بُعد الشُّقة بين مُثُلنا العُليَا ، التي ورثاها من ديننا ، والواقع البشع في حياتنا المريبة ! .

وليدركوا - كذلك - بُعد الشُّقة بين مجتمعنا الراهن بالظلم وهو - كما يقال - مجتمع إسلامى ، ومجتمعات الغرب الحافلة بأثار العدالة والاستقامة وهي - كما يقال - لا إسلام فيها ولا إيمان !

وسيتوارى الدُّعاء إلى الإسلام خَجَلاً ، عندما يجدون أنه باسم النبي العظيم «محمد» ﷺ الذي عاش متواضعاً ، لين الجانب ، قد حكم جبارة ، وقام قياصرة وأكاسرة ، وأنه باسم هذا النبي الكريم ، الذي عاش فقيراً ، ومات فقيراً ، قد جمعت ثروات ، وخزنت كنوز ، واستمتع أفراد وجاعت شعوب !!

ولن نَعْدُ في وصف ذُكر المشاهد القائمة ، والمقالات المنشورة ، وسنعرف ما الذي عرَّا الخصائص التي جعلت الإسلام يُسيطر قديماً على القلوب والأقطار ، ويمثل في تاريخ الإنسانية دور التجديد والنشاط والابتكار .

ثم ما الذي أقعده في هذه العصور ، عن أداء رسالته! ، بل جعل بلاده نفسها فريسة الهوان والإذلال؟!

ولما كان كتابنا هذا خاصاً بالناحية الاقتصادية ، فهكذا صوراً من نقائض الحياة في بلاد وبلاط . . .

ولنبدأ بالدولة العجوز «إنجلترا» عدو الشيوعية اللدود ، هي ورضياعتها الولايات المتحدة ولننظر روابط الطبقات فيها . .

ذكرت مجلة «آخر ساعة» تحت عنوان «المملكة» و«الاشتراكية» ما يلى :

«ثم تعجب - وأنت في «لندن» - عندما ترى التوافق العجيب بين الاشتراكية والمملكة . . .

إن شعب بريطانيا ، أصبح يقدس تعاليم الاشتراكية . . . وهو في الوقت نفسه يحترم النظام الملكي ويقدس الأسرة المالكة .

أجل إن الأسرة المالكة في بريطانيا ، موضع حب ، واحترام ، وإجلال كل فرد .

وقد استحقت الأسرة المالكة الحب الذي تتمتع به . . . إذ نزل الملك «جورج» عن جميع ممتلكاته للدولة ، مقابل مبلغ ما يتقادسه كل عام . . .

وفتحت أبواب القصور الملكية - ما عدا قصر «بنجهام» - لتدخلها الجماهير وتتمتع بمشاهدتها .

ولقد أهدت الملكة «مارى» أخيراً إلى الدولة سجادة ، صنعتها بيدها ، في ثمانى سنوات ، وطلبت الملكة أن تعرض هذه السجادة ، في مزاد بين دول العملة الصعبة . . . ويفضف الثمن إلى رصيد بريطانيا ، من هذه العملة .

... ويتمتع أفراد الأسرة المالكة بالحقوق نفسها ، التي يتمتع بها كل مواطن في إنجلترا ، وعليهم ما عليه ، من واجبات .

فإنهم يدفعون الضرائب - كغيرهم - على ممتلكاتهم الخاصة . . .

وحدث في عدة مرات ، أن طلب بعضهم بضرائب باهظة ، فاضطروا أن يفتحوا قصورهم الريفية للراغبين في زيارتها ، نظير أجر . . . حتى يستطيعوا أن يدفعوا الضرائب » .

ويقولون لك في لندن : «إنهم لن ينسوا فرحة الأميرة «الميرابيث»⁽¹⁾ بزوج من «جوارب النايلون» أرسله أحد أفراد الشعب هدية لها في زفافها . »

ولقد بلغ من الدلال في الاستمتاع بالحرية هناك ، أن هذا التصرف البليد من الملكة «مارى» كان موضع نقد لاذع ، من الشيوعيين الذين لم يقنعهم هذا الجهد الكبير المشكور ، إن اشتغال الملكة بنسج سجادة تباع لمصلحة الشعب الإنجليزي كان موضع سخرية المعارضين لنظام الحكم القائم إذ إن هؤلاء المعارضين لا يكتفون أن يكون أفراد الأسرة المالكة خداماً لأمتهما على هذا النحو الرائع بل يطلبون - ما هو في نظرهم حق الشعوب ومنطق المساواة - يطلبون انتقاماً لهذا النظام العتيق وهكذا ما نشرته صحيفة «المصري» تتمة لهذا الموضوع :

استغلت اليوم جريدة «الديلى ووركر» الشيوعية ، العاطفة النبيلة التي أبدتها الملكة «مارى» والدة جلاله ملك بريطانيا أسوأ استغلال ، واتخذت منها مادة لبث دعايتها ضد الأسرة المالكة البريطانية .

(1) التي أصبحت ملكة بريطانيا فيما بعد . إذ إن هذا المؤلف كتب قبل أن تقلد منصب الملكة .

ويذكر القراء أن الملكة والدة ، قد قامت بصنع سجاد جميل ثمين ؛ قضت في نسجه أعواماً طوالاً ، ثم قدمته هدية إلى الأمة البريطانية ، كى يباع في أمريكا ، وتنفق الدولارات التي ستدفع قيمة له ، فيما يعود بالخير على بريطانيا الفقيرة إلى الدولارات .

وقد تحدثت صحف العالم بأسرها - ومن بينها الصحف المصرية - عن ذلك الشعور الجميل ، الذي دفع الملكة والدة إلى التفكير في خير بلدها في هذه الظروف الاقتصادية القاسية ، التي تمر بها بريطانيا :

وقد شاءت الجريدة الشيوعية ، أن تُسخر من هذه العاطفة الكريمة فاقتربت في مقال نشرته اليوم ، أن يُحول جناح كامل ، من أجنحة قصر «بكنجهام» إلى مصنع ملكي لصنع السجاجيد ، يعمل فيه الملك والملكة والأميرات ، وبنلاء ونبيلات المملكة المتحدة !

وذلك كى تكسب بريطانيا من بيعها في الولايات المتحدة ما هي بحاجة إليه من دولارات .

وقالت «الديلي ووركر» : إنه إذا ارتفع الإنتاج إلى عشرة آلاف سجادة في الأسبوع ، فإن أثمانها ستعود إلى بريطانيا بدولارات ، تبلغ قيمتها أضعاف الدولارات التي ستتلقاها بريطانيا في العام المقبل ، وفقاً لمشروع مارشال .

وهذه هي المرة الثانية في خلال هذا الأسبوع ، التي عمدت فيها الجريدة الشيوعية إلى النيل من الأسرة المالكة البريطانية .

فقد نشرت منذ أيام قليلة صورة «كاريكاتورية» تقارن فيها بين مركز الملك والملكة ، ومركز «سبتريزخاما» الزعيم الأفريقي ، الذي قررت الحكومة البريطانية نفيه من بلاده ، لأنه تزوج من فتاة بريطانية بيضاء .

العدالة الاجتماعية في إنجلترا :

والنظام الاشتراكي في «إنجلترا» مثل سام لتعاون السلطات كلها ، على رفاهية الشعب وتنفيذ القانون في نطاق واسع .

والملك في هذه الجزر خاضع خصوصاً مطلقاً للشعب ، إنه لا يستطيع لنفسه ولا لأحد الناس إليه ضرراً أو نفعاً .

والحدود التي يحيا داخلها تجعله رمزاً يفيد أكثر مما يستفيد .

وإنه ليذكرنا بالحكام الأوائل أيام الحضارة الإسلامية الزاهرة إنه ملك طبع لأمته وقوانينها لا يفكر في النكال فيها قيد أنملة .

ونثبت هنا ما نشرته مجلة «المصور» تدليلاً على هذا الاتجاه الدقيق ، تحت عنوان :

ما حيلة الملك، والأمر للوزير؟ ...

يذكر القراء - ولا شك - تلك الضجة التي أثارها زواج ابن شقيقة ملك إنجلترا «اللورد هاروود» من ابنة ملحق نسوي، وحضور الأسرة المالكة حفلة الزفاف.

ولقد استقبل الملك العروسين أخيراً، عقب عودتهما من الرحلة الطويلة التي قاما بها.

وفي الحضرة الملكية، قال اللورد الشاب لخاله الملك:

«إن زوجتي تشاطرنى الفرح يا مولاي، إذ نراك معافى وقد استعدت صحتك ...»

فرَبَتْ الملك على يده قائلاً:

الحمد لله، إذ لم يتجلِّسَ السير «جيمس ليرموث» - الجراح الملكي - عناء قطع ساقى في هذه المرة ... وعسى أن يعفى من هذا العناء دائمًا!

وسائل الملك اللورد الشاب عن أحواله، فقال:

على ما يرام، يا مولاي ... على أنسى سأتخلى عن الأراضي التي أملكها في «ليدز» ...

فهتف الملك في دهشة: «ولماذا؟ ... إنها من أقدم أملاككم، ولكم فيها ذكريات عزيزة».

- هو ذلك يا مولاي ... ولكن حكومة جلالتكم ترى أن توزيع الذكريات على أربعة آلاف فدان، ترف يجب أن تقاضى عنه ضريبة باهظة! ...

وهز الملك رأسه وهو يقول:

- أو تحدثنى عن هذا؟! ... إنتى لا أجهله ولكن ...، ولكن ما حيلتى والأمر في يد مISTER «ستافورد كريبيس»، وهو مخلص في تطبيق القانون؟؟».

وليس بمستغرب في بلاد هذه شؤونها الدستورية، وأوضاعها الاقتصادية، أن تدور فيها انتخابات حرة ١٠٠٪ فتحتفق فيها الشيوعية ١٠٠٪ ولا ينجح فيها نائب واحد.

فلنترك إنجلترا الكافرة (كذا) إلى بعض بلاد الخليج العربي، ولنمسك قلوبنا بأيديينا، قبل أن تذوب أسى وحسرة، أو قبل أن تقطع حنقاً وغضباً ... ماذا نرى؟

مثل واحد لقاعدة مطردة:

إن الاستيلاء على المرافق العامة، واستغلالها في المللذات الخاصة قد سرت عدواء في أكثر دول الخليج العربي وفي غيرها من دول البترول ...

فبدلاً من الإفادة من موارد «البترول» في رفع مستوى الشعب ، وسد خلته ، وتدعمير ثروته ، تكبر أملاك بعض الرجال المحظوظين! ويشتد عنفوان الاستعمار الداخلي !

وقد مات أخيراً «الشيخ أحمد آل جابر الصباح» أمير الكويت ، فذكرت الصحف : أنه يعتبر صاحب أكبر دخل في العالم .

إذ هو يكسب أربعة ملايين جنيه كل عام ، أو ما يعادل ٢٨٠ ألف جنيه كل شهر ، أو ٧٠ ألف جنيه في الأسبوع ، أو ستة جنيهات وستة عشر شلناً في كل دقيقة - حسب إحصاء الصحفى الإنجليزى الذى يقول : إن هذا الدخل خالص الضريبة ، إلا ما يفرضه هو نفسه عليه ليجبيه إلى خزانته !

ومصدر هذه الثروة البترول (١) .

فانظر - رعاك الله - كيف تتبرع ملكة إنجلترا بثمن سجادة من كد يديها وعينيها لوطنها ؛ فيتحول الملك الخاص ، إلى عام ، إشارة إلى فناء الفرد في الجماعة .

على حين تتعكس الآية في الشرق الإسلامي ، فيتحول الملك العام إلى خاص ، إشارة إلى فناء الجماعة في فرد . . .

في روسيا حيث لا إله والحياة مادة !

وفي الهند حيث يقدسون البقر والقردة !

وفي سائر أوروبا وأمريكا حيث يعبد الثالوث !

في أرض الله الواسعة الأخرى ، ينظر إلى المنجم وما تنتجه من حديد أو ذهب أو بترول على أنه ملك الشعوب الخالص ، تنفقه في مصالحها المشروعة وحسب ..

أما في بلاد الإسلام الأولى وما جاورها فإن الاستعمار الداخلي جعل ذلك ملكاً خاصاً لرجل ، أو لأسرة . . .

أى نكر هذا؟ وأى غرابة؟

ونحن نؤثر أن نكسر القلم قبل المضى في سرد المقارنات والتعليقات المثيرة عندنا في مصر!

ولنتحدث عن أثر هذه الأوضاع المقلوبة في حقيقة الإسلام - من حيث إنه دين - وفي مصادر أتباعه - بوصفهم أمة - فهذا ما يعنيها قبل كل شيء .

(١) خسرت الكويت في كارثة سوق المناخ ما يكفى لسداد ديون العالم الإسلامي كله وتحقيق تنميته الشاملة .

انتفاع الأمم بالإسلام

سر دخولها فيه وبقائها عليه

لقد استقبلت الإنسانية الإسلام ، منذ أربعة عشر قرناً ، كما يستقبل المدرج المجهود مطالع الصبح باسم ، يرى فيه الهدى والرشد .
أو كما يستقبل الرقيق المغلول المكدوّد ، بشائر الحرية والعدالة ، فهو يطفئ فيها ظمأ روحه إلى السيادة والسعادة .

إذا تركت المقياس الأدبي في تقويم الإسلام - كدين - يحدد العلاقة بين الإنسان وربه على خير وجه ، ويدفع هذه العلاقة في طريق مستقيم ، ونظرت إلى الإسلام بالقياس المادي المجرد - على ضوء انتفاع الناس منه - لكان ذلك كافياً في فهم انتشار الإسلام ، وإقبال الأمم المختلفة على اعتماده .

﴿وَقَلِيلٌ لِّلَّذِينَ أَتَقْوَا مَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾^(١) .

لو كان هذا الدين «بضاعة» تصدر من الجزيرة - قدماً لا حديثاً - لأرسل أهل فارس والشام ومصر ، يسعون إلى جلبها والإفادة منها ، في هدم السلطات التي عبشت طويلاً بصالحهم ، وبنت كيانها على أنقاض كيانهم .

إذ كان المفهوم : أن الإسلام ديمقراطية سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية تؤاخى بين الناس ، فيما لهم وما عليهم .

ومن ثم قامت حول الإسلام الأول أجيال تتعصب له تعصب الخبراء الفاهمين ، لا تعصب الحمقى الجامدين .

أما الآن فأنت ترى وتلمس مبلغ فساد التطبيق العلمي ، بل الفقه العلمي للإسلام . ومبّلغ إفادة الأمم الأخرى من الأنظمة التي تسودها . . .

ثم نشأ عن ذلك أن الرأسمالية الغربية قامت في بيئه تفهمها وتهضمها وتدفع عنها . وأن الشيوعية لها - كذلك - دولة تتعصب لها وتبشر بها .

(١) سورة النحل آية ٣٠ .

أما الإسلام الذي يجب أن يكون جبهة جديدة لا شرقية ولا غربية ، فإن أحوال أهله خليط ، من ديمقراطية واستبداد ، ومن رجعية وتقديم ، ومن رأسمالية وإقطاع ..

وهذه الأسماء كلها رموز لأشكال من الحكم ، ليس وراءها إلا الانهيار المعنوي ، والتبدل النفسي .

وعندما يكون بين جوهر الأمة وشكل الحكم فيها منطقة فراغ ، فإن أمورها لا تؤذن بخير أبداً!!!

وإذا كانت الشيوعية - على ما بها من عورات وسواءات - قد استطاعت تكوين قوم يتعصبون لها ، فكيف حالنا إذا اصطدمنا بها من غير أن نكون الجيل الذي يتعصب لنظامنا الخاصة؟

وأنى نقدر على ذلك ، إذا لم يحس أفراد الشعب جمیعاً باطمئنان ، وارتياح إلى هذه النظم؟

إن الصراع الدائر الآن في ربع العالم صراع عقائد قبل أن يكون صراع أسلحة ..

هناك جماهير كثيفة ألفت الشيوعية وانطبعت بتعاليمها وهي تقاتل بحرارة عنها .

وهناك في الجبهة المقابلة أم تحترم كنائسها وتراثها وتقاليدها وتستميت دون أن ينال شيء من ذلك بسوء .

فكيف نواجه هذه الكتل المتراسدة بما لدينا من فراغ نفسي وخلخلة اجتماعية وفتور في المشاعر وانكسار في الآمال؟

هات صورتين من صور التعصب للمبدأ ، إحداهما من روسيا ، والأخرى من أمريكا .

ولعل المستقبل يجنب الشرق الإسلامي العثار ، فيؤدي واجبه نحو تقاليده وأبنائه .. فنقدم له صورة ثلاثة أصدق وأصح .

من وراء الحدود :

أما الصورة الأولى ، فللكاتب الروسي «إيليا اهرنبورج» .

ولقد رشح «اهرنبورج» نفسه لعضوية المجلس السوفيتي الأعلى .

وهو يقول في مقالٍ - أذاعه راديو «موسكو» - : إن شعبنا لن يعيش مؤتمراً بأمر الغير ..

وعبّاً يحاول الرئيس «ترومان» أن يخدعنا ، كعبث محاولة السناتور «ماكماهون» أن يغضّنا بتواجده .

إننا في غير حاجة إلى إرشاد الجبناء ، من ملوك العبيد في «كارولينا» ، كما أنها لا نخشى بائعي «الخدوات» في المدن الواقعة على الحيط الأطلسي . ولو كان هؤلاء يوزعون القنابل ، بدلا من «الدنتلا» .

ونحن مقتنعون بأن الاشتراكية أجدى من الرأسمالية ، وأن الأخوة أسمى من قانون الغابة ، وأن صداقه الشعوب أولى من كراهية الأجناس » .

ثم تابع القول : « إننا لا نقترح تعليمهم وإرشادهم . بل نترك أمرهم ليحكم عليهم التاريخ ..

غير أننا نقول لهم - في بساطة - : إذا كنتم تظنون أنه لا يوجد ما هو أحسن من نظامكم الاقتصادي ، ومن غلاء المعيشة ، ومن كساد الأسواق ، ومن تقلبات الحالة المالية ، ومن الإفلاسات . فلكم أن تحفظوا بها وأن تسيروا سيرتكم التي ارتضيتموها .

بل يمكنكم أن تنظموا الإنتاج وفق طريقتكم ، وتعلموا أطفالكم وفق أهوايكم ، وتكلبوا القصص الإجرامية ، وتصنعوا أفلاماً سخيفة . بل لكم أن تضعوا أقدامكم على الموائد ، بشرط أن تكون موائدكم التي تملكونها . . .

إننا نعتقد اعتقاداً ثابتاً في عدالة مبادئنا ، وليس لدينا أية نية ، في تدعيم هذه المبادئ بالقانابل . ولقد دافعنا عن السلم منذ الأيام الأولى ، لنشأة جمهوريتنا وسنظل ندافع عنه دائماً .

ثم عاد يتحدث عن أمريكا فقال: «... إن الدولار أصبح معبوداً في أمريكا».

وقال : «إنه حينما كان يقيم في أمريكا ، سمع شاباً يغازل آنسة بقوله : تبدين لى كمليون دولار ، أى «ما أجملك » ولو أن مثل هذا القول وجه إلى آنسة سوفيتية لغضبت ، ولها الحق كل الحق في غضبها » .

والصورة الثانية: تكشف عن وجهة النظر الأمريكية في هذا التفكير الشيوعي الشائز.

وأهل الولايات المتحدة مخلصون لحياتهم ، راضون عن أسلوبها وليسوا مأجورين للدعاية ضد روسيا كبعض الطوائف عندنا .

وقد نشر مстер «ليوناردى شابيرو» الصحفى المعروف ، مقالا هاماً عن روسيا ، وهو من علماء القانون ، وقد درس أنظمة الاتحاد السوفيتى بدقة ، وقال :

«إن هناك فرقاً كبيراً بين العهود التى كانت الشيوعية المتطلعة إلى امتلاك ناصية الأمر تقطعها على نفسها ، وبين الأعمال التى تحث فيها البلشفية المنتصرة بوعودها السابقة .

لقد وعد الشيوعيون سكان روسيا فى سنة ١٩١٧ «بالسلام والخبز والأرض ، وإلغاء عقوبة الإعدام» .

ولكن - بدلًا من ذلك - استمرت الحرب الأهلية سنتين ، وبدلًا من الخبز ، ما زال الجنود الروس يذهلون لمستوى المعيشة فى شرقى ألمانيا ، برغم مرور أكثر من ثلاثة عاماً ، على تأسيس النظام الشيوعى فى روسيا .

وأما الأرض فقد أخذها الفلاحون لكي تتنزع منهم مرة أخرى . بواسطة نظام المزارع الجماعية الذى انتهى بخمسة ملايين ، إلى معسكرات السخرة ، لمعارضتهم له .

وأما عقوبة الإعدام فقد عادت إلى روسيا بعد أشهر قلائل من إلغائها!!

ومن رأى هذا الكاتب : أنه لا أمل فى عقد أى اتفاق ، أو أى تفاصيم مع ساسة الكرملين !

وتحدى الكاتب عن الوعود التى وعدها الشيوعيون الشعب الروسى بشأن مصيره السياسي ، وقولهم له : إن دكتاتورية الدولة ستزول من روسيا ، وينحلها نظام يكفل حرية الفرد الكاملة .

ولكن حركات التطهير استمرت من عام ١٩٢٨ إلى اليوم !

وأعلن «ستالين» أنه لا بد أن تبقى الدولة ، وأن يشتد ساعدتها ، مادامت الرأسمالية موجودة فى أى مكان فى العالم .

ولم يكن من المصادفات أن أعدم «بوخارين» فى إحدى حركات التطهير المتتابعة .

فقد كان أعظم مفكري الحزب الشيوعى الروسى بعد «لينين» ومن أقوى دعاء اختفاء دكتاتورية الدولة ، لتوفير الحرية للفرد !!

* * *

والأمريكان طليعة الجبهة التى تكره الروس ، وتحاربهم فكريأً وسياسيأً ، وترى الشيوعية عدوأً يجب استئصاله بالسلم أو بالحرب . . .

والإسلام - بدهة - يقت الشيوعية ، ويراهما من شر ضروب الكفر .

وإن المرء ليعجب : كيف تطابق ألف من الخلائق على أن الحياة مادة بحت ، وأنه لا إله ، ولا شرائع ، ولا حساب؟!!

وكيف قامت للإلحاد هذه الدول الشامخة تستمسك به وتدعوه إليه؟!

وفي رأينا أن هذه الفلسفة الزائفة وأمثالها - كالوجودية والفوضوية - ما نبت واستغلت إلا في غيبة تعاليم الفطرة عن دنيا الناس ، وشروع ألوان من الإيمان الخرافى والظلم الاجتماعى مكنت لهذه التزععات أن تولد وتسير .

ولسر ما لم تعرف هذه المذاهب الصالحة إلا في أقطار الغرب ، ولم تفرخ إلا تحت جناح الصليبية الغربية الحاكمة القاهرة .

والحق أن الأثرة الطائشة التي اتصف بها الأوروبيون ، والغaram التي تحملتها الطبقات الكادحة والأقطار المفتوحة في العالم القديم كانتا السبب الفعال في بروز الشيوعية واتساع دائرتها . !

والإسلام يقوم في ميدان العقيدة على الصلة بـإله واحد يثبته العقل ، ينسب إليه كل كمال ويرسمه في كل شأن ، وأغلب الذين كفروا بالألوهية كفروا بها على أنها أصنام أو أبقار أو تثاليث مبهمة ، والكفر بالألهة الخرافية جزء من حقيقة التوحيد .

فإن كلمة التوحيد تتألف من جزء سالب «لا إله» وجزء موجب «إلا الله» فإنكار ألوهية البشر والحجر وما إلى ذلك نصف الحق . وكان يجب الاقتناع بالألوهية الصحيحة لتتم العقيدة الصادقة .

وأنى يوجد ذلك في بلاد لا تعرف دعوة الإسلام؟!

* * *

أما الثمرات الاقتصادية التي يهفو البشر للعيش في ظلالها ، فأسسها قد شرحه الإسلام في موقفه من المال . . .

إن الإسلام جعل الفرد حرّاً فيما يكسب ويستثمر . ولكنه رفض أن يضر بالمال ويتعدى به مصلحة الجماعة .

إن الإسلام أشد من الشيوعية حرّصاً على تعاون الطبقات واستئصال شأفة الاستغلال والاستعلاء .

وأشد من الديمقراطيّة حرّصاً على كيان الفرد ، وإطلاق خصائصه وكفالة حرّياته .
بيد أن الإسلام تكب خلال قرون متواتلة بأقوام يعرفون ذواتهم قبل أن يعرفوا ربّهم ، ويقدرون شهواتهم على وحّيه ، ومصالحهم على أمره ونهيه .

ومن هنا حفلت بلاد الإسلام بفنون من الفوضى الاجتماعيّة والسياسيّة يطيش لها الحليم .

بعض ما عندنا!!:

ولعل هذا الاستعراض للمبادئ السائدّة ، وعواطف المتعلّقين بها يدل على مبلغ ما أصاب حياتنا النفسيّة والعقلية ، من اضطراب في ظلال الأحوال الاقتصاديّة ، التي نعيش فيها ..

لقد سمعت رجلاً يشكّو من جودة هضمه ، ويتسأّل ماذا يفعل ، ليجّب صيحة معدته التي تعلو بين الحين والحين ، وهو لا يجد القوت؟!

وقرأت أخيراً نبأ العثور على جثة محترقة بالإسكندرية ، فلما عرف صاحبها وانتقل المحققون إلى مسكنه ، وجدوه يعيش مع امرأته في غرفة حقيرة ، كل ما فيها لحاف قديم مهلهل قدر ، كان الزوجان يتغطّيان به ، ويضعن رأسيهما على قطعة صغيرة ، من قضبان السكك الحديد ..!

وذكرت الزوجة أن رجلها ، كان دائم الشكوى من الفقر ..

فلما وُجّه إليها المحقق السؤال التقليدي : هل لزوجها أعداء؟ أجبت المرأة : نعم ! وأشارت إلى بطّنها صارخة : المعدة يابك ! عدونا الأول والأخير ، وهي أكبر عدو .. !

هذا القتيل في الحقيقة صريح الفوضى الاقتصاديّة ، وخواء المجتمع ، من حقيقة الدين والعدالة والنظام .

وإذا كانت روسيا ستتجند المتعصبين لها ، لكي يقاتلوا معها ، وأمريكا ستتحشد المؤمنين بنظامها ، حتى يستميتوا من أجلها .

فهل الذين تقتلهم نظمنا الاقتصادية والاجتماعية الخاوية هم الذين يدافعون عنها دفاع المتعصب المستقل؟!

إننا نوجه القول إلى حكام الشرق الإسلامي المسكين .

لقد أفسدتم دينكم وأضعتم دنيانا ، وبقى لكم من الدنيا ما تحرصون عليه ، وبقى لنا من الدين ما نتمسك به .

وهذه البقايا المتهافة توشك أن تزول ، فأمامنا الاستعمار الرأسمالي الغربي يتربص ، والاستعمار الشيوعي يتهدد ، والصهيونية العادمة الفاجرة تتلمظ .

وما هكذا تقتصر المصالح أو تساس الشعوب :

كَيْ لَا أَلَامَ عَلَى نَهْيٍ وَإِنذارٍ	أَنَا النذير لِكُم مِّنْ مَجَاهِرَةٍ
أَنْ سُوفَ تَلَقُونَ خَرِيًّا ظَاهِرَ الْعَارِ	إِنْ عَصَيْتُمْ مَقَالِيَ الْيَوْمِ فَانتَظِرُوا
يَلُهُ الْمَقِيمُ بِهَا وَالْمُدْلُجُ السَّارِي	وَتَصْبِحُونَ أَحَادِيثُ مُلَعْنَةٍ

* * *

سوء استغلال الدين في حل المشاكل العامة

المرض.

في مصر أمراض متقطنة كثيرة ، تنبعث من الديدان المنتشرة في تربتها ومياهها ، والغبار المنتبعث في جوها يرمد العيون .

وثمًّا أمراض أخرى فتاكـة تنشأ من قلة التغذية ، وكثرة الإرهاـق ، وسوء توزيع الأعـمال والأموـال والعلوم المختلفة .

والتقدير المادـي لـقيـم النـفـوس والأجـسـام ، يـفـرض عـلـى الـحـكـومـة الـعـاقـلـة الـراـشـدة ، أـنـ تحـارـبـ الأمـراضـ ، بـكـلـ الوـسـائـلـ التـىـ يـمـلكـهاـ الـبـشـرـ .

ذـلـكـ فـضـلـاـًـ عـنـ التـقـدـيرـ الـأـدـبـيـ لـقـيـمـ النـاسـ ، وـضـرـورـةـ إـنـقـاذـهـمـ مـنـ الـغـوـائـلـ التـىـ تـأـتـىـ عـلـىـ عـقـولـهـمـ وـقـلـوبـهـمـ ، فـيـمـاـ تـأـتـىـ عـلـىـهـ مـنـ أـجـسـامـهـمـ وـقـوـاهـمـ الـمـنـتـجـةـ .

وـالـدـينـ يـحـبـ الـعـافـيـةـ ، وـيـعـتـرـبـهـ النـبـيـ - صـلـوـاتـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـامـهـ - أـفـضـلـ مـاـ أـوـتـيـهـ إـنـسـانـ بـعـدـ إـلـيـانـ بـالـلـهـ . وـيـوـصـىـ النـاسـ بـطـلـبـهـاـ مـنـ اللـهـ - عـزـ وـجـلـ - بـعـدـ كـلـ أـذـانـ ، وـاعـتـبـرـ مـنـ الـأـدـعـيـةـ الـمـأـثـورـةـ التـىـ يـكـرـرـهـاـ الـمـؤـمـنـ خـمـسـ مـرـاتـ فـيـ الـيـوـمـ «ـ اللـهـمـ إـنـىـ أـسـأـلـكـ الـعـفـوـ وـالـعـافـيـةـ فـيـ الـدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ »ـ (ـ ١ـ)ـ .

وـبـدـيـهـىـ أـنـ التـمـاسـ الـعـافـيـةـ لـاـ يـكـونـ بـالـتـمـنـىـ عـلـىـ اللـهـ ، بـلـ بـاتـخـاذـ الـأـسـبـابـ الـمـمـكـنةـ الـمـوـصـلـةـ إـلـىـ اـسـتـصـالـ الـمـرـضـ ، إـشـاعـةـ الـصـحـةـ الـعـامـةـ ، وـبـنـاءـ الـمـسـتـشـفـيـاتـ لـذـلـكـ وـتـزوـيـدـهـاـ بـحـاجـتـهـاـ ، وـبـمـاـ هـوـ فـوـقـ حاجـتـهـاـ مـنـ الـأـطـبـاءـ وـالـدـوـاءـ .

وـهـذـاـ - بـدـاهـةـ - بـعـدـ رـفـعـ مـسـتـوـيـ الـمـعـيـشـةـ ، وـتـنـظـيمـ الـأـوضـاعـ الـاـقـتـصـادـيـةـ ، بـحـيثـ يـسـتـطـعـ كـلـ فـرـدـ أـنـ يـأـخـذـ نـصـيـبـهـ مـنـ الـأـلـبـانـ وـالـلـحـومـ وـالـفـوـاـكـهـ وـغـيـرـهـاـ !ـ

تـلـكـ حـقـيـقـةـ يـتـضـافـرـ الـدـينـ مـعـ الـدـنـيـاـ عـلـىـ تـقـرـيرـهـاـ ، وـيـعـمـلـانـ مـعـاـ عـلـىـ تـحـقـيقـهـاـ .

وـلـكـنـ النـاسـ فـهـمـوـاـ أـنـ الـدـينـ إـنـ لـمـ يـرـحـبـ بـالـمـرـضـ فـهـوـ لـاـ يـبـالـىـ بـدـفـعـهـ !ـ وـإـنـ اـهـتـمـ بـدـفـعـهـ !ـ فـبـالـكـلـامـ الـقـوـيـ ، أـوـ بـالـكـلـامـ الـمـرـيـضـ .

وـذـاكـ حـسـبـهـ مـنـ وـاجـبـ ، يـفـرضـهـ عـلـىـ الـحـكـومـاتـ ، وـيـوـجـهـ إـلـيـهـ الـشـعـوبـ .

(ـ ١ـ)ـ مـنـ حـدـيـثـ مـطـولـ .ـ أـخـرـجـهـ أـبـنـ مـاجـهـ فـيـ سـنـتـهـ تـحـتـ رـقـمـ ٦٢٧ـ فـيـ ضـعـيفـ الـجـامـعـ عـنـ أـبـيـ هـرـيـةـ .

وعندما كانت أوبئة الحمى تحصد الرجال والنساء والأطفال في مصر العليا ..،
وعندما كان الموتى يحملون على الدواب كأنهم أكواة تراب ، لانهيار المناكب التي
تستطيع الحمل! استعانت الحكومة ب الرجال الوعظ! في أعمال المكافحة ، لكنى تستطيع
إسماع القرى المنكوبة رأى الدين في النظافة والوقاية .

وهذا العمل خير في ظاهره وباطنه ، لو أن انعدام النظافة والوقاية ، هو السبب الحق ، في انتشار هذه الأوبئة ، أو لو كانت النصائح المجردة ، هي الوسيلة الحقة لمنع هذا . . . ولكن الناس يعلمون علم اليقين ، أنَّ ثمَّة أسباباً هائلة ، وراء هذه القشور الظاهرة ، وأنَّ نصائح علماء الدين لم توقف من سير المرض شيئاً ، لأنَّ المرضى وذويهم ، أحوج إلى المال والعون والغذاء والكساء والدواء ، منهم إلى الخطب والنصائح والأحاديث والآيات . . . إن الجائع لا يحتاج إلى وَحْىٍ من السماء يقال له : كلُّ !

بل الناس - بفطرتهم - تحت سُورَةِ الجوعِ والمَرْضِ ، يتطلعون إلىِ الغذاءِ والدواءِ .
فمن التمسح الباطل بالدين أن نقصر في توفير الأغذية والأدوية . . .
ثم نرسل - بدل ذلك - جملة من الوعاظ .

لقد «أمت» مهنة الطب في بلاد كثيرة . وأضحتى لكل مريض حق واجب على الدولة أن تعهده حتى يشفى ، مهما بلغت نفقات دوائه .

والتأمين الصحى^(١) على حياة الجمهور لا تستكثر فى سبيله الألوف . وإنها لجريمة أن تتحا فرصة التداوى للأغنياء ، بل لكلابهم !! ، فى مستشفيات خاصة ، وأن يرمى بغيرهم فى الطريق !!

وأخشى أن تضطرب العلاقة بين العمال وأصحاب العمل ، فتستعين الحكومات ب الرجال الوعظ لتسكين الخواطر وتهدئه التواير !! ، بدلاً من الجنوح إلى الحلول الصحيحة الواجبة ، في أمثل هذه المشكلات ، لأن الأمر لا يعود الاستغلال الصغير للدين مما تضيق به طبقات المنكوبين والمظلومين . !!

ورأى الدين الصحيح في هذه المشكلات ، يمكن فهمه من مصادره ، وهو أقوم السبيل لراحة الوعاظين والموعظين على سواء .

(١) لم يكن نظام التأمين الصحي معمولاً به وقتئذ.

الفقر :

يعتبر الفقر سبباً ونتيجة معًا ، في سلسلة المشكلات التي نعاني ويلاتها .
والفقر - في نظر الدين - قد يكون معصية يسأل الفرد عن الواقع فيها ، وقد يكون نكبة تسأل الدولة عن ضرورة تلافيتها .

وعوام المسلمين يرون أن رقة الحال ضرب من التدين ، وأن الفقر في الدنيا أمارة على الغنى في الآخرة !!

وهذا خطأ بعيد ، يعمل الكثيرون على إشاعته !!

فالإسلام يعتبر الفقر مصيبة ، ويعمل على تخلص الناس من آثارها ، جهد المستطاع .
وقد امتنَ القرآن على النبي ﷺ بنعمة النجاة من متاعب العيالة والحريرة واليتيم .
فقال تعالى :

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَأَوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (١) .

وكان النبي ﷺ يسلك الفقر مع أحلاله الأمور سواداً ، وأشدتها على حياة الناس وقعاً .
فكان من أدعيته المأثورة « اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبر ، لا إله إلا أنت » (٢) .

كذلك كان يقرن استدامة العوز وال الحاجة بسقطات المعاishi : « أعوذ بك من المأثم والمغرم وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » (٣) .

وقد بين أن الرجل المؤمن ، هو الذي يملأ شأنه ، ويحرز أمره ، ويستثمر قواه ، ولا يعيش في الدنيا متصلعاً مضيئاً .

روى سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال . « إن الله يحب العبد التقوى الغنى الحفى » (٤) .

وكراهة الإسلام للقعود والعيالة ، جعلته يرفع منزلة العمل ، ويعد التعب فيه جهاداً في سبيل الله ، والهجرة في طلبه ، هجرة إلى الله .

(١) الضحي آية ٦ : ٨ .

(٢) أخرجه أبو داود في سنته ومستدرك الحاكم تحت رقم ١٢١٠ في ضعيف الحاكم عن أبي بكرة .

(٣) أخرجه أبو داود في سنته تحت رقم ٢١٦٩ في ضعيف الجامع عن أبي سعيد .

(٤) صحيح . أخرجه الإمام أحمد ومسلم تحت رقم ١٨٨٢ في صحيح الجامع .

ولعل التنقل في جنبات الأرض ابتغاء الغنى والعفاف ، هو بعض ما جاء به النظم القرآني .

﴿قُلْ يَا عِبَادَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾^(١) .

* * *

ولم يكن النبي مسكييناً ، على المعنى الذي يفهمه الناس للمسكينة الآن !! ، من هوان النفس وإغلال اليد . بل كان الأعراب يرسلون إليه الهدايا لتردد إليهم مصاعفة .. حتى إن أعرابياً غضب لأنه أهدي إلى النبي ناقة واحدة ، فرددت إليه ثلات نياق فقط ! وكان ينتظر من النبي أكثر من ذلك !!

ولقد هم النبي ﷺ ألا يقبل هذه الهدايا التجارية العجيبة ..

على أن موقف النبي ﷺ من المال كان مغايراً من وجوه عدة موقف الناس ، مؤمنيهم وكافريهم منه .

فهو صاحب دعوة نفسية وعقلية ، تعتبر مبادئها رأسماله الفضخم ، أولاً وأخراً . فإذا انتظر الأولاد من آبائهم ميراث الدرهم والدينار فإن محمدًا ﷺ لا يورث أهله شيئاً من ذلك .

فقد وردت عنه : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »^(٢) .
هو يقول ذلك عن نفسه .

على حين يقول لسعد بن أبي وقاص : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتکفون الناس »^(٣) .

إذا لم يكن النبي ﷺ صاحب خزائن مفعمة ، فإن ذلك لا يعييه في شيء .. إنما يخدش رجولة الرجل العادى أن تضيق حيله ، وأن يقف تحوله ، وأن تکثر ثرثته عن الحظوظ العاشرة ، والأقدار القاهرة !!

مع أن عييه منه وداءه فيه لأنه يؤثر معيشة العاجزين القاعدين .
ومسئولية الفقر في هذه الحال تقع على الرجل المقصى .

(١) الزمر آية ١٠ .

(٢) صحيح - أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذى والنسائى وأبو داود .

(٣) صحيح أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم .. رقم ٢١٨٠ في صحيح الجامع .

غير أن هناك رجالاً يأخذون للعيش أسبابه ، ويطردون للعمل أبوابه ، ويحرق الواحد منهم دمه وأعصابه .. ثم لا يجدون شيئاً بعد هذا الجهد المضنى ، أو يجدون شيئاً يمسك الرمق ، ويسد بعض الحاجات الملحقة ، ثم يجف العين ، وتسود الدنيا في وجوههم ، وتضطرم في نفوسهم ثورة مكتومة على المجتمع والدولة ، ويسوء ظنهم في قيمة العمل والسعى ..

ومثل هذه الحال تظهر وتكثر عندما تضطرب الأوضاع الاقتصادية ، وتتدخل أمور غير إرادية في توزيع الخسائر والأرباح ، فربما أصابت القاعدين بالربح ، وربما أصابت العاملين بالخسارة!! .

والدولة مسؤولة - لا ريب - عن إعادة التوازن ، وتنظيم الأمور وتحقيق العدالة ، ولا يجوز إقحام الدين - عندئذ - في الرضا بالقسمة والنصيب!! .

لقد سمعت أحد القراء يشكو سوء الحال ، وقلة الربح .. برغم جده .

ويقول - معتذراً - : إن الجندي يقرع الباب أولاً ويسأله : هل أخي هنا؟ فإن قيل له : نعم ، دخل . وإن قيل : لا ، يم شطر ناحية أخرى ، باحثاً عن مستقره إلى جنب أخيه! . وقد يكون أخوه مدفوناً تحت التراب ، أو محبوساً في جوف خزانة! .

وهكذا تعمل الأوضاع المضطربة على أن يزداد الغنى غنى والفقير فقرًا!! .

وهذا كلام ينطوى على صواب كثير ، وأكثر الحكومات في العالم تأخذ بهأخذًا واضحًا ، وتضع على أساسه سياستها الاقتصادية!! .

وأقرب الأمثلة إلى أذهاننا ، مكاسب الحرب والضرائب الاستثنائية ، التي فرضت عليها ..

فمما لا شك فيه ، أن أثمان البضائع قفزت بها الحرب إلى حد بعيد .

وبين عشية وضحاها ، أصبح التاجر الذي كان يملك ألفاً ، يملك عشرة آلاف أو يزيد .

وأقتحمت هذه الأموال الزائدة طريقها إلى خزائن الغنى ، وهو لم يكلف نفسه ، حتى مشقة فتح الأبواب ، أمام هذه الوفود السعيدة التي حلت به فجأة!

وبينما حالة الحرب تفعل فعلها هذا ، وترفع به طبقة من الناس . إذا بها تفعل نقىضه مع طبقات أخرى ، فتكلفها أن تقدم دمها ، وتفقد حياتها ، أو تكلفها أن تعيش عيشة تعسة لا خير فيها ولا غناه .

فكان لزاماً على الحكومات أن تعالج هذه المفارقات البعيدة ، وأن تخسم نتائجها المريكة .

فوضعت شتى القوانين لمصادرة الأرباح الاستثنائية ، وحاولت أن تخفف ضغط المؤس الاقتصادي ، عن الطبقات التي نكبت به .

* * *

وقد تكون هذه السياسات الموضعية ، أفلحت في تحقيق الغرض منها .. لكن يبقى البحث عن الدواء ، الدواء الدائم ، حالات الحرب والسلم معاً .. تبقى الإجابة عن شكوكى هذا الفقير ، الذى يريد أن يعمل ، وأن يربح ، وأن يدخل ميدان الحياة ليتضرر فيه بجده أو أن ينهرم فيه بتفرطيه !

ومن الموكد أن الجهد الذى يبذلها أصحابها ، ثم لا يربحون منها شيئاً ، لا تذهب عبشاً ، بل تمشى فى مسارب ملتوية ، ثم تنتهى إلى أقوام قليلى العمل ، عظيمى النتائج ، أى أن شقاء الملايين تسعد به - بطريق غير مباشر - حفنة من الرجال ! وهذا ظلم فاضح .

ومن أكبر الفواحش عند الله أن يبقى .. بل أن يستغل الدين لإبقاءه . يجب أن يدخل الناس ميداناً تكافأ فيه الفرص وتؤدى الأسباب نتائجها ، وتأكد فيه قواعد العدل الاجتماعى الصحيح .

هل العلاج فى الزكاة؟

كثير من العلماء ، إذا ذكر عنابة الإسلام بالفقراء ، وحدهه على الطبقات البائسة ، لم يجد ما يستشهد به على ذلك إلا الزكاة ! .

تلك الصدقة التى فرضها الله فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً يتسع لحاجات المنكوبين ، ويفرج به ضيق المكروبين .

وهذا تفكير محدود ، واستدلال ناقص .

ذلك أن الزكاة لا تعدو أن تكون ضريبة إحسان . ومصارف الزكاة التى بينها الشارع تشير إلى هذا .

ومكان الإحسان المالى فى بناء أى مجتمع ليس مكان القواعد والأوتاد .

ومن العبث ، أن تربط حياة قسم كبير من الأمة بالفضلات التي تلقى إليه من القسم الآخر !! .

والشخص الذي يستطيع العمل من كد يده ، وعرق جبينه لا يجوز أن نفرض عليه الاعتماد في حياته كلها أو جلها على الزكاة .

وإلا فقد انقلبت الزكاة تشريع إفساد ، لا تشريع إصلاح .. تشريعًا يعين على البطالة ويدفع إليها ، ما دامت الفريضة لابد من إخراجها ، وما دام المحتاجون لابد أن يأخذوا منها . وتلك كلها نتائج لا يقصد إليها الدين ، ولا يهدى لها .

وقد قال الرسول - صلوات الله عليه وسلم - : « لا تخل الصدقة على غنى ولا لذى مرأة سوى »^(١) .

فالرجال الأصحاء لابد أن تهيا لهم وسائل العمل .

والربح الوافر الذي يكسبونه من أعمالهم ، هو الدعامة الاقتصادية الأولى في بناء كل مجتمع صحيح بحيث يكون موضع الزكاة معها ثانويًا ، يظهر مع طوارئ الضعف والعجز والتعطل والقعود .

وهذا موضع الزكاة الواجب ، ومصرفها المعقول .

ثم إن توفير أسباب العمل أمر تلزم به الحكومة ويفرض عليها ، ويباح لها أن تتخذ من الوسائل الاقتصادية ، ما تراه كفيلة بتحقيق هذه الغاية العظيمة .

بل يتحتم عليها أن تتخذ هذه الوسائل ، وأن تبتكر من المشاريع العمرانية والتحويرات المالية ، ما يقطع دائرة التعطل ، ويسوق أفراد الشعب - قاطبة - إلى ميادين العمل والإنتاج .

وليس في دين الله ، ولا في تعاليم الحياة ، ما يحول دون هذا . بل على العكس .

هناك من التوجيهات الدينية الخاصة وال العامة ، ما يؤكّد هذا المسلك ويستلزمها .

فإن الإسلام - مثلاً - يفرض التجنيد المالي إلى جانب التجنيد العسكري ويحتم تعبيئة النفوس والأموال ؛ لخدمة الحق والفضيلة والإيمان .

وتجنيد النفوس ، وتجنيد الأموال ، ليس عملاً عسكرياً بحثاً .

ومن الخطأفهم ذلك في عصر تطورت فيه الحروب ، حتى أصبحت علمًا وإنتاجًا ، يستنفذ طاقة الأمم حتى لا يبقى لها قطرة !

(١) صحيح أخرجه الإمام أحمد والنمساني وابن ماجه .. عن أبي هريرة . تحت رقم ٧٢٥١ صحيح الجامع .

فتتجنيد النفوس والأموال عمل زراعي وصناعي وتجاري .
 هو تسخير للقوى المنتجة ، وجعلها تُروساً قوية ، في الآلة الدائبة التي ينبغي أن تدور في أوقات الحرب والسلام جمِيعاً للإعداد والاستعداد .
 ومثل هذه الحالة لا يبقى معها عاطل ، ولا يعيش فيها متشرد .
 والمساهمون في حركتها النشطة ، هم - جمِيعاً - جنود مجاهدون ، يعرفون رسالة الحياة جيداً ، ويقومون بأعبائها على خير وجه .
 وإلى بعض هذا يشير الحديث الشريف : « إِنَّ اللَّهَ يُثِيبُ فِي السَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفْرٍ : الَّذِي صَنَعَهُ ، وَالَّذِي نَاوَلَهُ ، وَالَّذِي رَمَى بِهِ »^(١) .

وعلى ضوء هذه الحقائق ، تعرف القصد من القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ وَالْإِنْجِيلِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَأَسْتَبِرُوا وَبِيَعْكُمُ الَّذِي بَأَيْعَمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾^(٢) .

ف تستطيع كل حكومة عاقلة معقولة أن تسن من القوانين ، وأن تضع من النظم ما ترى أن فيه الوفاء بحاجة الأمة ، على اختلاف طبقاتها ، وفاء لا يبقى معه عاطل ولا محروم .

* * *

فليفهم الناس روح الدين - إن شاءوا - وليرعلموا أن من حق القادر أن يعمل ، وأن يجاهد في الحياة ما دام حياً ، لا أن تتسلى الحكومة له الإعانات ، وأن تفتح له مطاعم الصدقات ، وأن يكون ذلك باسم الحنان الديني ، ووجوب إخراج الزكاة! .

نظار^(٢) لكم أن يرجع الحق راجع
 إلى أهله يوماً فتشجوا^(٤) كما شجوا
 على حين لا عذر لعتذريكمو
 ولا لكمو من حجة الله مخرج

(١) من روايات متعددة وحديث مطول .. أخرجه الإمام أحمد والنسائي والترمذى ..

(٢) سورة التوبة آية ١١١ .

(٤) تحزنوا .

ضوابط الملكية الخاصة في الإسلام

المال الذي يقع في أيدينا ، هل هو ملك مطلق لنا ، نتصرف فيه كيف نشاء؟ أم هو ملك مُقيَّد تخضع فيه تصرفاتنا لقوانين المجتمع وتقف ، أو يجب أن تقف عند حدود معينة؟

إن نصوص الدين تجيز على هذا التساؤل إجابة صريحة .

وهي إجابة لا تُرضي مطلقاً طائفَ الانتفاعيين ، ولا الاستغلاليين ؛ لأنها تُغلِّبُ
أيديهم عن العبث والفساد والظلم !

المال الذي في أيدينا هو ملكنا على التجوز لا على الحقيقة .

ونحن مستخلفون فيه ؛ لينظر الله عز وجل ماذا نعمل به . فإذا حكمت تصرفاتنا لنا
أو علينا .

وإلى هذا يشير القرآن : ﴿وَأَتُوهُم مِّنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (١) .

ويقول تعالى : ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٢) .

وقد فهم بعض الناس أن محاسبة أصحاب الأموال على تصرفاتهم في مالهم إنما تكون هناك - في الدار الآخرة - حيث يسأل كل مالى عن ماله : « من أين اكتسبه ؟ وفيمَا أنفقه؟ » كما جاء في الحديث .

ولكن المفهوم من مبادئ الإسلام ، ومن تصرفات خلفائه الراشدين غير هذا .

فتصرفات السفهاء في أموالهم وضع لها الحجر على حرياتهم الشخصية .

وهذا مبدأ تستطيع الدول أن تتسع فيه .

فكما تُنْقَذُ الفرد من حماقة سلوكه ، تُنْقَذُ المجتمع من حماقة بعض طبقاته ! ومبدأ « من أين لك هذا؟ » أخذ به الخليفة الراشد « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه .

(١) سورة النور آية ٣٣ .

(٢) سورة الحديد آية ٧ .

فصادر - على أساسه - بعض الممتلكات التي ارتاب في مصدرها ، ورأى أن طريقة تملكها باطلة .

* * *

والقاعدة العامة في هذا ونحوه ، نأخذها من قول القرآن الكريم :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٢) .

فهدف الديانات والرسالات الأولى : قيام التوازن بين الناس ، بإقامة العدل الاجتماعي والسياسي فيهم ، وتشريع القوانين المادية والأدبية التي تكفل تحقيق هذه الغاية الكبيرة بينهم .

وينبئ أن الميزان الذي جاء به الأنبياء ، ليس الميزان الحديدي الذي يمسكه التجار . ! ولكن الميزان الشرعي الذي يمسك به المصلحون لضبط الأوضاع والأعمال ، وتوزيع الحقوق والواجبات ، وتنظيم الهيئات والطبقات !

وهو ميزان تتجدد حكماته بتجدد العصور ، وتتغير قوانينه بتغير الأمكنة والأزمنة .

ولكن قيام الناس بالقسط ، هو محور الارتكاز الذي لا يتغير أبداً ، وقد قال بعض علماء الأصول : إن مصالح الناس المرسلة ، لو وقف دون تحقيقها نص أول هذا النص ، وأمضيت المصالح التي لابد منها .

وقالوا كذلك : إنه يجوز قتل ثلث الناس ؛ لإصلاح حال الثلثين !

فإذا كان إصلاح حال الجماعة الإنسانية يحتل من الدين هذه المنزلة . فهل تقف الحقوق المكتسبة أو المغتصبة لبعض الطوائف دون إصلاح المجتمع العام ، وتحقيق السعادة لأكبر مجموعة من أبنائه ؟

وهل لا يجوز بعدها مراقبة مبدأ الملكية الزراعية والصناعية وتوظيفه ؛ لتحطيم قيود الجهل والرذيلة والبأساء ، التي ترزع تحتها جماهير الشعوب حتى لو أدى ذلك في بعض الظروف إلى تقييد الملكية ؟

إن التعلت في هذا ، جهل بالدين ، وظلم له عظيم ..

(١) سورة الحديد آية ٢٥ .



فحساب الناس على أموالهم دنيوي وأخرى معًا ورعاية المصلحة الفردية والاجتماعية والسياسية تدخل في نطاق هذا الحساب ، دخولاً لاشك فيه .

وللحكومة - من وجهة النظر الدينية - أن تقترح ما تشاء من الحلول ، وأن تبتعد ما تشاء من الأنظمة ؛ لضمان هذه المصلحة ، وهي مطمئنة ، إلى أن الدين معها لا عليها ، ما دامت تتحرى الحق ، وتبتغى العدل وتنضبط بشرع الله فيما تصدره من اقتراحات وقوانين .

* * *

ومنع المنافع العامة ، من أن تكون ملكاً لشخص واحد ، وجعلها ملكاً للدولة وحدها ، أمر لا شيء فيه .

إذ ورد في الحديث : « إن المسلمين شركاء في ثلاثة : في الماء والنار والكلأ ». وهذا من قبيل التمثيل للأمور التي كان لا يجوز - قديماً - احتكارها لفرد ما ؛ إذ إن حاجة جماهير الناس إليها سواء ، فلا يصح تمكين يد واحدة من الاستيلاء عليها . فإذا اتسعت حاجات الناس باتساع الحضارة وتغير الزمن . فعلى الحكومة أن تضع يدها - باسم الشعب - على مصادر الثروة العامة ، وأن تقضي المحتكرين - أفراداً كانوا أو شركات - من محاولة استغلالها لأنفسهم ، وتسخيرها وتسخير الشعب معها لمطامعهم .

هل يفهم من كلامنا أننا نحور على حق التملك الخاص ؟

إننا ما نقصد إلى هذا بتاتاً ، فحرية التملك جزء من الحرية الشخصية التي نحترمها ونود لو أححيطت بآلف سياج ..

من حق أي إنسان أن يعمل وأن ينال ثمرة عمله كاملة ، وأن يستمتع بنتائج جهده ، وأن يورث أبناءه ما اكتسب .

وقد أقر الإسلام مبدأ الملكية ، ودافع عنه ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ (٢) .

(١) سورة النساء آية ٥ .

(٢) سورة النساء آية ٢٩ .

إلا أن الإسلام أكثر من القيود التي تجعل حق التملك لا ينقلب وبالاً على أصحابه وعلى الناس .

فالمملك مقبول من حلال ، مرفوض من حرام .

والملك الحلال لا بد أن تخرج منه حقوق شتى حتى يسلم لصاحبها ما بقى له .
وما بقى بعد ذلك لا يجوز أن يكون سناداً لتطاول أسر متكبرة تحاول بقوة المال أن تحكم وتصدر وتسوق الجماهير بثرائها أو بعصاها! .

ذلك ، إلى أن المراقب العامة ينبغي أن نرفع عنها أيدي الأفراد حتى لا تلقى مقاليد الأمة المادية والأدبية إلى نفر يفرضون عليها وصايتها ويلعون عليها إرادتهم .

دلالة المال المعنوية :

تركيبة النفس والضمير ، وترقيمة الخلق والسلوك ، من أهم ما عنى الدين بدرسه وغرسه ، وهو - وحده - مقياس الخير والشر ، وميزان القيم الصحيحة للرجال .

وقد تواضع الناس من قديم على اعتبار هذه الحقيقة فوق الشك والجدل ، من الناحية النظرية ..

أما من الناحية العملية ، فوزن الرجال بحبيتهم قد يقدم على وزنهم بقلوبهم ومقدار ما لديهم من مال هو الذي يحدد مقدارهم بين الناس! .

حتى شكا الشاعر من أنه حين يطلب رؤية الشريف يريه الناس الغنى دائمًا ، كأن الشرف فضة أو ذهب لا علم ولا أدب :

إذا قلت يوماً لمن قد ترى أروني السرى أروك الغنى
ومثل هذه الحال جديرة بعلاج الدين ؛ حتى لا تنطمس الحقائق ، ويستحمرق رأى
الناس في الفضائل ، ويضلون طريق اكتسابها .

وقد بدأ القرآن الكريم فنفي أن يكون المال - وإن كثراً - مظهراً الرضوان الله عن شخص ما ، كما نفي أن يكون في الإقتار دليل على تجريد الإنسان من الخير والفضل ، فقال :

﴿فَإِمَّا إِنْسَانٌ إِذَا مَا أَبْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) وَإِمَّا إِذَا مَا
أَبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ (١٦) كَلَّا...﴾ (١) .

(١) سورة الفجر آية ١٥ - ١٧ .

﴿أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمَدِّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١).

بل إن القرآن ذهب إلى أبعد من هذا ، في نفي كل دلالة معنوية عن المال فيبين أنه بعض متع الحياة الدنيا ، الذي ينتهي معها إلى فناء وعدم ، على حين يخلد الحق والخير ، ويبقى المستمسكون بها أحياء ، بعد فناء الدنيا وما فيها .

وأنه لو لا تخوف الفتنة على ضعاف النفوس ، لقصر المال والجاه على الأراذل والأشرار .

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لَمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنَ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجٍ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يَتَكَبُّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

ومن الطريف : أن النبي ﷺ حكى : «أن رجلا دخل الجنة فرأى عبده فوق درجته ! فقال : يارب هذا عبدى فوق درجتى قال : نعم جزىته بعمله ، وجزىتك بعملك !» .

وهذا بيان جميل لرأى الدين الواضح ، في أن الرجال بأعمالهم لا بأموالهم .

وقد جاءت آيات شتى ، تنفي كل دلالة معنوية للمال ، وتحببه الطبقات الغنية بالحقيقة التي يكثر نسيانها وينتشر الجهل بها أو تجاهلها .

حقيقة إن قيمة الرجل بما يعمل لا بما يملك .

ومع ذلك ، فموازين الحياة المختلفة ما زالت - ولا تزال - تقوم على عكس ذلك .

وشيوع البغى الاجتماعي والسياسي - تبعاً لاحتلال الأوضاع الاقتصادية - يؤكّد رأى القرآن في المال عندما يفيض فيغرق ويهلك : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾ أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى﴾^(٣).

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوا فِي الْأَرْضِ﴾^(٤).

(٢) سورة الزخرف آية ٣٣ : ٣٥ .

(١) سورة المؤمنون آية ٥٥ ، ٥٦ .

(٤) سورة الشورى آية ٢٧ .

(٢) سورة العلق آية ٦ .

ويؤكد كذلك ضرورة التحكم فيه ، حتى لا يكون مثار بغي ولا طغيان . فطالما أصيّبت الإنسانية في مقاتلها ، من قلة القوانين التي تضبط توزيع المال وتقييد استغلاله وإنفاقه .

وطالما كان وجود المال في الأيدي العابثة الفاجرة ، مثار إغواء بالعبث والفساد ، يكاد يخلع الإيمان من القلوب ، ويطرد الطمأنينة عن المجتمعات ، لولا صيحات التحذير التي تعيد الحق في نصابه ، وترد إلى الفضائل والمثل العليا قيمتها الثابتة ، وتهون من شأن المال وأصحابه .

وذلك في مثل القرآن الكريم :

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرَهُقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١) .

وأصحاب الأموال إنما يأخذون مكانتهم في الحياة ووجاهتهم بين الناس لسبعين :
الأول : أن المال يعطى صاحبه قوة بالغة يحقق بها مآربه ، ويبلغ بها أغراضه ،
ويستطيع - في ظلها - الاستغناء عن الكثيرين من الناس ، والكثير من الأعمال المحرجة
والمضنية .

والناس يدّنّي لهم الاحتياج ويبتذلّهم ، ويقصيهم الاكتفاء ويُمْكِن لهم .

ومن ثم أدخلنا العوامل الاقتصادية في تكوين الفضائل والرذائل ، ولم نغفل خطرها في تكوين الشخصية الإنسانية .

الثاني : أن الدين يعد المؤمنين بحسنى الحياتين جمیعاً .

فهم إن آمنوا وأصلحوا ، صلحت معايشتهم في الدنيا ، وصلاح مستقبلهم في الآخرة .

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيهِ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنُعَذِّبَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) .

(٢) سورة التوبه آية ٥٥ .

فالسعادة في الدنيا بعض الأجر المعجل للإنسان ، على استقامته فيها .

وقد قال الله عز وجل - في أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام - :

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾^(١) .

ولذلك وهم الأكثرون ، أن الغنى منح إلهية ، تدل على الرضاء العالى ! . وأن السعادة المرجوة ، لا تقام إلا على ركام كثيف من المال ! .

وقد تضافر هذان السبيان على إعطاء الطبقات الغنية ، مهابة في القلوب ، وسعة في الجاه ، مما جعل جمهور الشعب يتلقى سطوطها بالقبول والانحناء ، تارة باسم الدنيا ، التي يملكونها صاحب المال ، وتارة باسم الدين ، يجعل الدنيا نصيباً مفروضاً للأغنياء ، أخذوه باستعدادهم واستحقاقهم ..

ولكن الدين - كما علمت - لا يرى في المال أية دلالة معنوية .

وطيب الحياة الذي وعد الله به المتنبئين ، لا يعني بالتحديد كثرة المال ، وبسطة الرزق ، واتساع الجاه .

فهذه أمور قد يصيّبها المؤمن ، وقد يصيّبها الكافر ، وقد ينالها بعيد عن الله والقريب منه ، إذ قال الله تعالى :

﴿كُلَا نُمْدُّهُؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(٢) .

وقد ينكب المؤمن في هذه الأمور ، لعوامل طارئة ، فلا تنقص قيمته ، ولا تخدش كرامته ! ..

أما طيب الحياة المفروض للمؤمن ، فمعنى أنه يعيش كبير القلب ، رفيع الرأس ، يُقبل على الدنيا ؛ ليأخذ منها زاده المادى ، ويُقبل على الدين ؛ ليأخذ منه زاده الروحى . يحرص على إيمانه بربه أبداً ، ويحرص - كذلك - على نصيبه الحق الكريم من دنيا الناس .

فإن فقده نداء إيمانه بربه وإنسانيته ومثله العليا ، فإلى حيث ألت ، وإن وجده عوناً ومدداً لحياة ندية ، بعيدة عن الهاوان والطغيان ، فبها ونعمت !

(٢) سورة الإسراء آية ٢٠ .

(١) سورة العنكبوت آية ٢٧ .

والماذهب السياسية والاقتصادية ، التي تغمر العالم في الفترة الأخيرة من تاريخه ، تنظر إلى الدنيا هذه النظرة نفسها ، والرجال الذين ينادون بها يريدون أن يعيشوا في ظلها سعداء ، أو يموتونها شهداء .

فالشيوعية - مثلاً - في روسيا وعدت جمهور الشعب بحياة لا شقاء فيها ولا جوع ولا بأساء .

فإذا تحمل جمهور الشعب الشقاء والجوع والبؤس في سبيل الذود عنها - حين وقعت الحرب بين روسيا وألمانيا - فليس ذلك طبيعة النظام الذي ارتصوه لأنفسهم ، ولكنها طبيعة الحرب ، التي فرضت عليهم .

وما يقال عن الشيوعية ، يقال عن النازية ، ويقال عن الديمocratية .

فكل دين أو نظام يُعدُّ أصحابه الخير الكثير ، ولكنه لا يكذب إذا كلف أصحابه أن يقدموا أنفسهم وأموالهم وكل خير لديهم في سبيله !

غاية ما هنالك أن الأنظمة المدنية لا تعدُّ أشياعها إلا بأجزية مادية قريبة .

أما الدين فَيَعِدُّ أتباعه بالأخرة إن هم - في سبيله - فقدوا الدنيا .

هل يفهم أحد من ذلك ، أن الدين يكره الدنيا ويحتقر المال؟

إذا كان الدين يُتَّهِّمُ بذلك ؛ لأنه يأمر الناس أحياناً أن يُضَحِّوا بالدنيا ، وأن يزهدوا في المال . فإن الأنظمة المدنية والمبادئ الإلحادية ، ينبغي أن تتهم كذلك بالتهمة نفسها ؛ لأنها كلفت أصحابها أن يُضَحِّوا بالرجال والأموال ، ولكن أحداً لم يتهمها بذلك .

لأن سوء الفهم للدين وحده ، موفور ؛ إذ تؤيده الشهوات ، وتدعمه الأهواء ! ..

أما سوء الظن بالمبادئ والأنظمة الأخرى فقليل أو معدوم .

ليست للمال دلالة معنوية مجردة ، على خير أو شر ، وإن كان من الممكن أن يكون خيراً ، ومن الممكن أن يكون شرّاً ، على حسب الطرق التي يؤخذ منها وينفق فيها .

غير أننا إذا أردنا بناء عالم جديد ، تمتزج فيه الدنيا بالدين ، لخير الإنسانية ومستقبلها فلنضع نصب أعيننا أولاً ، ضرورة تقارب الملكيات وتكافؤ الفرص ، وتساوي الأفراد في الحصول على المقومات الأولى للإنسان من غذاء ، ولباس ، وعلم ، وخلق .

ففى هذا الجو - وحده - يكون التسامى بالموهوب العظيمة فقط ، وتقل أو تنعدم كل دلالة باطلة للمال ، على رفعة أو جاه .

ويجب ثانياً : أن يوضع من الأنظمة ما يجرد الأغبياء من مظاهر الذكاء ، وما يرفع الأذكياء عن حياة الخمول والتعطل ، وذلك يتطلب تقويم كفاية الفرد تقويمًا مادياً؛ فمن ارتفعت منزلته الأدبية ارتفعت منزلته المادية .

وقد كان أبو بكر يوزع على الناس سواسية ، فلما جاء عمر ، رفض هذا التقسيم وأعطى الناس حسب منازلهم .

ذكر الدكتور محمد يوسف موسى فى كتابه « فقه الصحابة والتابعين » :

كان الصديق أبو بكر يُسوى بين الناس فى أعطيتهم فلا يفضل أحداً على أحد .

قال يزيد بن أبي حبيب : إن أبا بكر لما قدم عليه المال جعل الناس فيه سواء وقال : « وددت أن أخلص مما أنا فيه بالكافاف ، ويخلص لى جهادى مع رسول الله ﷺ » .

وحدث الليث بن سعد أن أبا بكر كُلم فى أن يفضل بين الناس فى القسم فقال : « فضائلهم عند الله ، فاما هذا المعاش فالتسوية فيه خير » !

فلما تولى عمر الخلافة واتسعت الفتوح وتدفقت الغنائم رأى عمر فى توزيع العطاء بين الناس غير ما رأى سلفه .

رأى أن لا يُسوى بين من قاتل رسول الله وبين من قاتل معه !

ثم جعل الناس مراتب وطبقات فى الأخذ من هذا المال ، حسب درجة كل منهم فى الإسلام ..

ومن كلامه فى تبرير هذا التفاوت : « ما أنا فى هذا المال إلا كأحدكم ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا من رسول الله ﷺ .. » !

فالرجل وتلاده فى الإسلام .. !

والرجل وغناوه فى الإسلام .. !

والرجل وحاجته فى الإسلام .. !

وعندنا أن ملحوظ عمر فى تقسيم العطاء أولى بالتطبيق .

فإن درجات الناس فى الآخرة حسب إيمانهم ، لاتهدى الفوارق التى بينهم فى الدنيا حسب كفايتهم وجهادهم ..

وإن كان أبو بكر يرى الدنيا أنزل قدرًا من أن تراعى في تقدير .

وحجة أبي بكر في صنيعه : أن حساب الناس على أعمالهم وجهادهم إلى الله وحده ، في الدار الآخرة .

أما الدنيا ، فالأمر معد ، يجب أن تملأ ، وأجساد يجب أن تكسى ، يستوى في ذلك الناشر والكسول ، والمتقدم والمتاخر .

لكن عمر أبي الاتحقيق العدالة ، وتنظيم الأوضاع ، وتقدير المتقدم ، وتأديب المتأخر في الدنيا ، وحساب الناس - بعد ذلك - إلى الله .

حق الناس في المال :

لا يجوز أن يبقى رجل من غير دخل - قليل أو كثير - يكفل له المستوى الواجب لعيشته .

وعلى المجتمع الدين ، أن ينظم أمره تنظيمًا ، يؤدي إلى هذه النتيجة المحتومة ، وإنما كان مجتمعاً لا دين له .

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : « أئمًا أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعًا ، فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى ». .

وقد أفتى ابن حزم وغيره من العلماء ، بأنه إذا مات رجل جوعًا في بلاد اعتبر أهله قتلة ، وأخذت منهم دية القتيل .

وقد اعتبر القرآن أنه من التكذيب بالدين ، أن تدع اليتيم ، وألا تُخْضَن على طعام المسكين .

فكيف يكون رأي القرآن في بلاد لا تهمل الحض على طعام المسكين فقط ، بل تصنع الفقر والمسكنة ، وتخرج إلى المجتمع الإنساني ألوان الفقراء والمساكين؟!! .

فكأن أنظمتها الاقتصادية آلات جبار ، تصوغ البؤس في قوالب من أبناء آدم ، ثم ترمي بهم على أفاريز الطرق ، وفي خرائب الأبنية أو بين السجون والملاجئ والمستشفيات .

هل نسمى هذا إلا أنه كفر بالدين ، وإنكار لنصوصه وقواعد ومبادئه ، إى وربى ، وإن أصحاب هذه النظم هم أصحاب الميسرة⁽¹⁾ في الدار الآخرة .

(1) أحزاب الميسرة الآن هم المعروفون بالمليون الاشتراكية .



﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتَى كِتَابَهُ بِشَمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتْ كِتَابَهُ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حَسَابِيَهُ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةُ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِي مَالِيَهُ (٢٨) هَلْكَ عَنِي سُلْطَانِيَهُ (٢٩) حُذُوهُ فَغَلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سُلْسَلَةِ ذَرَعَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (١).

والمال الذي يكفى لإذهب العيّلة ، واستئصال الحرمان ، وإشاعة فضل الله على عباده ، يجب إخراجه - مهما عظم - من ثروات الأغنياء ، ولو تجاوزت تجاوزاً بعيداً مقادير الزكاة المفروضة ؛ لأن حفظ الحياة حق إسلامي أصيل .

- ومقادير الزكاة ليست إلا الحد الأدنى لما يجب إنفاقه .

- وقد ورد عن النبي ﷺ « إن في المال حَقّاً غير الزكاة » .

ولنا كلام يأتي بعد في أنصبة الزكاة التي فرضها الشارع .

غير أننا نلتفت النظر ، إلى أن الزكاة في صدر الإسلام ، لم تكن المصدر الوحيد ، الذي رُصِدَ لمكافحة الفقر واستئصال شأفتة .

إن رأس مال أي أمة ناهضة هو جهد بنائها ، وكدحهم وراء الرزق ، واعتصارهم أسباب الحياة من الصخور .

وعلى الدول شق ميادين العمل لكل قادر ، واستنفاد الطاقات المخزنة في الأجساد لمصلحة الفرد والجماعة ، فإذا توفرت ثمرات العمل أولاً ..

فإن الزكوات وشتى ضروب العطاء عليها بعد ذلك أن تعمل عملها الواسع في تفريج الضائق ، وسد حاجات اليتامي والمساكين والمعوزين .

فإذا جفت بعض المنابع ، كان على المنابع الباقية أن تحمل العبء كاملاً ، وعلى الدولة أن تستنبط من موارد المال ، ما توازن به شئون المجتمع ، وتقييم به مصالح الناس . والدين لها في كل ذلك ظهير .

(١) سورة الحاقة الآيات ٢٥ : ٣٤ .

وإذا كانت الغاية التى شرعت من أجلها الزكاة ، هى تحرير الفقراء من قيود الفاقة ، وإطلاق إنسانيتهم من إسارها الحالك ، فلنتحقق هذه الغاية كاملة ، ولنحمل ما تفرضه علينا من تكاليف ، قليلة أو كثيرة !

لكن إبقاء كثير من الناس صرعى للفقر والمسكنة كان - والحق يقال - هدف أكثر الحكومات المتابعة ، فى العصور السابقة واللاحقة !! .

إذ أن تجوب العجائب ، بعض الدعائم التى تقوم عليها سياسة الظلم والظلماء ! .

ومن هنا انتشر الفقر انتشاراً ذريعاً فى الشرق الإسلامى ، وسخر الدين ورجاله ، لحمل الناس على قبوله واستساغته ، وفسرت نصوص الدين المتصلة بهذا المعنى ، تفسيراً سقيناً ، نسى الناس معه حقوقهم وحياتهم ، وجهلوا دنياهم وأخراهم ، وحسبوا الفقر فى الدنيا ، سبيلاً إلى الغنى فى الآخرة ، كما أسلفنا القول ! .

ونحن لا ننكر أن هناك آثاراً دينية ، تحمد الفقر وتنهى بشأنه .

ولكن ما دلالة هذا وما معناه؟

هل إذا قال شاعر :

جزى الله الشدائيد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

قلنا : إن الشدائيد خير .. وألفنا مصلحة أو وزارة ، نسميها وزارة الشدائيد لتذيق الناس لباس الجوع والخوف !!!

وإذا قال القرآن الكريم فى وصف حديث الإفك ، الذى طعن به شرف السيدة عائشة - صانها الله وكرمها - : « لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ »⁽¹⁾

قلنا : إن الإفك خير ، وألفنا جماعة لترويج الزور ، ورمى الناس به ، ودعوة الناس إلى الصبر عليه !!

وإذا وقعنا على حديث للنبي ﷺ يمدح الفقر على النحو الذى عزيت به السيدة المتهمة بالإفك ، وجدنا من بعض المتدلين من يؤلف طوائف من المتسكعين والمتبطلين باسم التصوف أو غيره ؛ ليعيشوا فى الدنيا فقراء بائسين !!

أجل ، فإن الشدائيد خير ، وإن الإفك خير ، وإن الفقر خير ، مادامت الطبقات الكثيفة من الشعوب ستقام على الضيم ، تاركة النعمة والترف والبذخ لمن قيس لهم هذا كله من المحتكرين والمستغلين !!

(1) سورة النور آية ١٠ .



وهذا هو المنطق الذى يراد أن يقبل باسم الدين ... !

إن مصائب الحياة قد تكون خيراً لا ريب فيه ، كما تكون السموم دواء فى بعض الأحيان لأمراض الجسد .

وهناك أفراد - بل أئم - تقتلن حياتها بمظاهر الكبر والجبروت والعدوان ، وتحتاج إلى قمع وتأديب يغتصب من كبرياتها ويحصد من عدوانها ، فيبتليها الله بالآلام .

وليس فى شيء من هذا ما يبيح لنا الظلم الاجتماعى ، أو ما يقسم البشر إلى آلهة وعبيد .

وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنْ يَقِيمَ مِيزَانَ الْإِنْسَانِيَّةِ إِذَا أَعْوَجَتْ ، وَأَنْ يُعِيدَ إِلَيْهَا تَوَازُنَهَا إِذَا اخْتَلَتْ ، وَأَنْ يَرْدِدَهَا لِذَلِكَ بَيْنَ السَّلْمِ وَالْحَرْبِ ، وَالْغَنَى وَالْفَقْرِ ، وَالْأَمَانِ وَالْقَلْقِ .

﴿ وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾⁽¹⁾ .

فلنترك للقدر الأعلى أن يبرز حكمته ، وأن تتحذى وسليته ، فلا شأن لنا بذلك ، إنما كلفنا - ونكلف أبداً - أن نقيم العدالة بيننا ، وأن نفرغ فى تحقيقها وسعنا وأن نبذل قصارانا ، فى مصلحة الجماعة ، وضمان حقوق الفرد ، متجنبين الفتنة والمحن ، بكل ما نملك من قوة وتفكير .

* * *

(1) سورة البقرة آية ٢٥١ .

الزكاة والضريبة

للمصالح المرسلة وأنواع القياس منزلة كبرى في الفقة الإسلامية ، فهو مرجع خصب لكتاب الأئمة ، يستنبطون منه شتى الأحكام ، ويواجهون به صور الحياة المتعددة على مر الأ أيام .

وإلى هذه الأصول التشريعية مثلاً أمر عمر رضي الله عنه بالقصاص من جماعة ، قتلوا واحداً ، فقتلهم جميعاً ، وإليها كذلك ، لم تعتبر أرض السواد غنية ، تقسم أخماساً على الفاتحين ، فأبقى الأرض لأهلها ، وضرب عليها الخراج وعليهم الجزية .

وإليها - أيضاً - أشار على رضي الله عنه بجعل حدّ الخمر ثمانين جلدة ، فإن من سكر هذى ومن هذى افترى .

والأمثلة كثيرة ، وليس هنا موضع سردتها . . .

في فقه الزكاة الذي يشيع الآن بينما قصور لا يليق أن يبقى .

هناك أحكام ينقصها السداد ، وصور استجدىت تضطرب فيها الفتيا ، ويشعر جمهور كبير من المسلمين أنهم لا يعرفون رأي دينهم فيها . . .

ومنذ أيامٍ كنت أقرأ في كتاب فقه استوعب الأحكام التقليدية في العبادات فوجدت مثلاً أن الأوراق النقدية لا تجب فيها زكاة عند إمامين من الأربعة!

فاستغربت ذلك الكلام الذي ينقصه الجد! . إن العالم الآن يتعامل كله بالأوراق النقدية ، وقد توارى الذهب في خزائنه العتيقة - ليكون رصيداً ضامناً لهذه الأوراق ، ثم إن الزكاة عن هذا النوع - من الأوراق النقدية - لا تخرج ذهباً ولا فضة ، إنها تخرج من جنس النصاب المقرر ، وتسد حاجات الفقراء بهذا الأسلوب المستقر . . فما معنى نفي الزكاة في هذه الجنيهات والدنانير والليرات وغيرها؟!

وقرأت كذلك أن زكاة الزروع والشمار إنما تخرج من الأقوات التي تدخر ، كالقمح والشعير والتمر والزبيب ، وأن هذا رأى أغلب الأئمة .

وهذا الرأى ربما اعتمد على ملابسات محلية في جزيرة العرب لا معنى بتاتاً لاستصحابها في أرض الله الواسعة . إن هناك أقطاراً فيحاء تعتمد على الفواكه والموالح والقطن والكتان والتيل وقصب السكر وغير ذلك فكيف يتصور - دينا - أن زارع القطن والقصب لا تجب في ثروته الطائلة زكاة في حين تجب على زارع القمح والأرز؟!

والغريب أن القرآن الكريم عندما نبه إلى حق الله في الزروع والشمار ، ضرب الأمثلة بإنتاج الحدائق وما إليها قال تعالى - :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالنَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالرَّيْتَونَ وَالرَّمَانَ مُتَشَابِهٍ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾⁽¹⁾ .

ولما كان الإسلام دينا عالمياً ينتظم البيئات كلها فإن تحديد دائرة الزكاة بالمعهود في أرض الجزيرة تحجير لا مساغ له وهو - كما رأيت - مخالف لسياق النص القرآني الشامل .

وتتبعت خلاف العلماء في زكاة عسل النحل فوجدت الخلاف يدور حول قيم الآثار المروية فيه أكثر مما يدور حول تحييص الواقع التي تعرضت لها هذه الآثار .. !

روى أحمد بن حنبل عن أبي سيارة المتعى قال :

قلت يا رسول الله ، إن لى نحلا ، قال : فأد العشور ، قلت : يارسول الله احم لى جبلها ، قال : فحمى لى جبلها ، أى خصه به .

وفي عهد عمر بن الخطاب كتب والى المنطة سفيان بن وهب إلى عمر يسأله عن ذلك فكتب عمر : إن أدى إليك ما كان يؤدى إلى رسول الله من عشور نحله فاحم له الجبل ، وإلا فإنما هو ذباب غيث يأكله من شاء .

فعمرا لم يعزم برأى ، إن أدى الرجل عشر العسل الذي يجنيه بقى له الجبل الذي ألف النحل التردد عليه ، وإلا فليس على الرجل شيء ، وللناس جميعاً أن يستشاروا هذا العسل ولا حكرة فيه لأحد !

ونقدة الحديث وفي طليعتهم البخاري يرفضون هذه المرويات لأحمد وأبي داود وغيرهم ولا يعتمدون عليها في إثبات زكاة .. !

ومن الأئمة من يوجب في العسل الزكاة .. .

والذى أراه أن العسل مال ، وأن العشر يجب فيه يوم يتكون دون جهد كما تجحب الزكاة بقدر العشر في الأراضي التي ترويها الأمطار أو الفيضانات ...

أما أصحاب المناحل التي تتكلف رعاية وأبنية وأغذية فالزكاة فيها نصف العشر لا العشر

(1) الأنعام آية رقم 141 .

فإطلاق ألا زكاة في العسل ، أو أنه في كل عشر قرب قربة غير صحيح .
وفقهاء الظاهر لا يرون في عروض التجارة زكاة ، وهذا مذهب خطير ولكن يخفف
من ضرره أن هؤلاء الفقهاء يوجبون في أموال الأغنياء ، مقادير من النفقة تقل أو تكثـر
بمقدار ما يذهب العيلة ويسد الحاجة . . .

وأخطر منه الرأي الحنفي الذي يأبى الجمع بين الزكاة والضريبة في الأراضـى
المزروعة ، وهو رأى أدنى إلى البطلان ، ولا يجوز ذكره في فتوى .

ومنذ أيام سألتني صاحب سيارة أجرة يكسب منها نحو ٥٠ جنـيـها في الشهر عن
حق الله في هذا الكسب ، فقلت له : أخرج نصف العشر بعد خصم الضرائب المقررة !!
فقال لي صديق من العلماء : كيف قلت هذا؟ وهو لو حال عليه الحول ما أخرج من
ماله إلا ربع العشر .

قلت له : التحقيق العلمي للموضوع انتهى بي إلى هذا الحكم ولو أفتـيت بما درست
ما خرجت الزكـاة من أرض تزرـع ، ولا وجـبـتـ إلا في المـدـخـراتـ التـىـ حـالـ عـلـيـهـ الـحـولـ
كـمـاـ تـقـولـ ، وـهـىـ لـاـ تـمـثـلـ فـيـ الـمـكـاـسـبـ الـمـتـدـاـوـلـةـ إـلـاـ نـسـبـةـ قـلـيـلـةـ جـدـاـ . . . !

لقد تدبرت شـتـىـ النـصـوصـ مـنـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ ، وـأـعـمـلـتـ مـاـ يـنـبـنـىـ عـلـيـهـ مـنـ أـنـوـاعـ
الـقـيـاسـ وـالـاسـتـصـلـاحـ ، وـرـأـيـتـ بـعـدـئـذـ أـنـ عـلـمـاءـ عـصـرـنـاـ مـقـصـرـوـنـ بـإـزـاءـ فـرـيـضـةـ الـزـكـاةـ ،
وـأـنـ كـتـبـنـاـ التـقـلـيـدـيـةـ تـضـبـطـ الـمـقـادـيرـ التـىـ تـخـرـجـ عـنـ الـإـبـلـ وـالـغـنـمـ وـالـبـقـرـ ، وـمـاـ عـالـجـهـ
الـأـقـدـمـوـنـ مـنـ هـذـهـ الشـتـوـنـ ، وـتـسـكـتـ عـنـ أـمـوـرـ أـخـرـىـ ذاتـ بـالـ .

وقد جـدـتـ فـيـ هـذـاـ عـصـرـ مـشـكـلـاتـ مـالـيـةـ ، لـاـ يـجـوزـ أـنـ نـقـفـ أـمـاـمـهـاـ مـكـتـوـفـىـ
الـأـيـدـىـ ، كـمـاـ لـاـ يـنـبـغـىـ أـنـ نـتـرـاـخـىـ فـيـ وـضـعـ حـلـولـهـاـ ، حـتـىـ لـاـ يـضـطـرـبـ النـاسـ فـيـ أـمـرـ
دـيـنـهـمـ ، مـنـ ذـلـكـ نـظـامـ الـزـكـاةـ .

فالـزـكـاةـ رـكـنـ مـنـ أـرـكـانـ الـإـسـلـامـ الـأـوـلـ ، وـمـنـ دـعـائـمـ أـوـضـاعـهـ الـاـقـتـصـادـيـةـ ، التـىـ يـكـفـرـ
مـنـ جـحـدـهـاـ وـيـحـارـبـ مـعـ الـمـرـتـدـيـنـ مـنـ مـنـعـهـاـ .

وـأـنـصـبـةـ الـزـكـاةـ فـيـ صـنـوـفـ الـمـالـ ، حـدـدـهـاـ الـدـيـنـ تـحـدـيـداـ يـعـتـبـرـ نـصـاـ فـيـ أـكـثـرـ الـأـحـوـالـ ،
وـنـرـيـدـ أـنـ نـعـتـبـرـ - قـيـاسـاـ - فـيـمـاـ سـنـورـدـ مـنـ أـمـثـالـ .

ذـلـكـ أـنـ الـإـسـلـامـ أـوـجـبـ إـخـرـاجـ رـبـعـ الـعـشـرـ ، مـنـ رـأـسـ الـمـالـ الـذـىـ يـبـلـغـ مـائـىـ دـرـهـمـ
فـمـاـ فـوـقـهـاـ ، وـالـزـكـاةـ فـيـ هـذـهـ الصـورـةـ ، مـعـتـبـرـةـ بـرـأـسـ الـمـالـ فـقـطـ ، زـادـ أـوـ نـقـصـ ، أـوـ بـقـىـ عـلـىـ
حـالـهـ ، مـاـ دـامـ قـدـ مـرـ عـلـيـهـ عـامـ وـقـدـ فـرـضـ الـإـسـلـامـ - كـذـلـكـ - زـكـاةـ فـيـ الـزـرـوـعـ وـالـثـمـارـ ،
جـعـلـهـاـ عـشـرـ أـوـ نـصـفـ الـعـشـرـ .

والزكاة في هذه الصورة ، قد اعتبرت على أساس الدخل الناتج ، مرّ عليه العام ، أو لم يمرّ ، ولا عبرة فيها برأس المال المُغلّ - وهو الأرض المزروعة ، قلت قيمتها ، أو عظمت .

ومن هنا نستطيع الحكم ، بأن قاعدة فرض الزكاة في الإسلام ، قد تكون رأس المال ، وقد تكون مقدار الدخل ونخلص من هذا ، إلى أن من له دخل لا يقل عن دخل الفلاح الذي تجب عليه الزكاة ، يجب أن يخرج زكاة مساوية ، ولا عبرة أليمة برأس المال ، ولا بما يتبعه من شرط .

فالطبيب والمحامي والصانع وطوائف المحترفين والموظفين وأشخاصهم ، تجب عليهم زكاة ، ولا بد أن تخرج من دخلهم الكبير .

ولنا على ذلك دليلان :

الأول : عموم النص في قول القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ ﴾⁽¹⁾ .

ولاشك أن ربع الطبقات الأففة ، كسب طيب ، يجب الإنفاق منه وبهذا الإنفاق الواجب ، يدخلون في عداد المؤمنين ، الذين ذكر القرآن أنهم هم : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾⁽²⁾ .

والدليل الثاني : أن الإسلام لا يتصور في حقه أن يفرض الزكاة على فلاح يملأ خمسة أفدنة ، ويترك صاحب عمارة تُدرّ عليه محصول خمسين فدانًا ، أو يترك طيباً يكسب من عيادته في اليوم الواحد ، ما يكسبه الفلاح في عام طويل ، من أرض إذا أغلّت بضعة أرداد من القمح ، ضربت عليها الزكاة يوم الحصاد! ..

لابد إذاً من تقدير زكاة على أولئك جميعاً ، ومادامت العلة المشتركة التي ينطأ بها الحكم موجودة في الطرفين ، فلا ينبغي المراء في إمساء هذا القياس وقبول نتائجه .

وقد يقال : كيف نقدر هذه الزكاة! وعلى أي نسبة تكون؟!

والجواب سهل . فقد رد الإسلام زكاة الشمار بين العشر ونصف العشر ، على قدر عناء الزارع ، في رى أرضه ، فلتكن زكاة كل دخل على قدر عناء صاحبه في عمله .

(2) سورة البقرة آية ٣ .

(1) سورة البقرة آية ٢٦٧ .

ومن الممكن إيضاح التفاصيل ، وتفريع المسائل ، وتحديد القيم ، بعد أن يتقرر هذا الأصل الخطير والأمر لا يستقل به تفكير واحد ، بل يحتاج إلى تعاون العلماء والباحثين .

أضرار التطبيق الحرفي لنظام الزكاة :

نريد أن تؤتى النصوص ثمارها في أوسع نطاق ممكن لها ، وألاّ نحصرها في حدود ضيق ، تبقى بعدها قليلة الجدوى ، قليلة الغناء ، وإلا استطاع الأغنياء أن يخرجوا من تبعة الإنفاق المحظوم ، ولا لوم عليهم ، وضاعت على الفقراء أموال كثيرة ، الدين - في الحقيقة - بريء من إضاعتها فمثلاً ذكر لي أحد التجار أن لديه ٢٠٠٠ من الجنيهات رصيداً لعمله ، وأنه يجب عليه أن يخرج عنها ٥٠ جنيهاً ، وهو القدر الواجب إخراجه للزكاة^(١) .

فإذا اشتري بهذه الألفين بيته ، واستغله بطريق الإيجار . فهل تجب عليه زكاة؟ والقواعد الموضوعة الآن ، توجب إخراج الزكاة عن الألفين الموضوعين في الخزائن لا يكسبان شيئاً .

ولا توجب إخراج زكاة ما عن الألفين اللذين يكسبان الكثير ، عندما وضعا في بيت لإيجار .

وهذا أثر من آثار التطبيق الحرفي لنصوص الزكاة!!

وهناك أصحاب العزب التي تؤجر لصغار الفلاحين . يأخذ الملاك الألوف المؤلفة منها ، وهم لم يعملوا بها يدأ ، ولم يغبروا قدمأ ، وينفقون ما يصل إلى أيديهم عن آخره ، فيكاد لا يبقى منه شيء ، لأنهم موقون بأن ستُجْبى إليهم ثمرات كل شيء

وهؤلاء لا تجب عليهم زكاة لقلة ما يدخلون ، على حين تجب الزكاة على المزارعين في أملاكهم ، المتعين طوال العام في السعى وراء أرزاقهم !!

وهذا أثر من آثار التطبيق الحرفي لنظام الزكاة!! وهو ما لا يعقل أن يقره الدين!! .

ولو عرَضَتْ هذه الصور للأئمة المجتهدين الأوائل ل كانت لهم في ذلك آراء حاسمة ولا نُمَاع من الفقة الإسلامي هذا الجمود الذي لا يزال يقرر أن أقل نصاب تجب فيه الزكاة من الفضة مائتا درهم ، ومن الذهب عشرون مثقالاً ، مع وحدة النقد في هذه الأيام ، وضرورة تساوى القيمة من الذهب والفضة وغيرهما!!

(١) يراعى فارق العملة الآن .. إذ إن الشيخ الغزالى قد كتب هذا المبحث الهام عام ١٩٤٧

على أن إفارة الكلام حول أنصبة الزكاة وقيمها ، لا يغير من معنى الزكاة الذى أشرنا إليه فى فصل سابق ؛ فهى محدودة المصرف والغرض ، وميزانيتها - ضاقت أو اتسعت - لا تتفق إلا فى مشروعات البر والإحسان ، التى أشارت إليها آيات القرآن .

أما كيان الأمة الاقتصادى ، وما يتصل بهذا الكيان ، من تحقيق العدالة الاجتماعية ، ونشر للفضائل ، ومحو للرذائل ، وتعظيم للثقافة ، وعناية بالصحة العامة ، وتنفيذ للمشروعات العمرانية ، ودفع عن البلاد ، وحماية لقومات الإنسانية ومثلها العليا . وجهاد فى السلم وال الحرب لذلك كله ، فهذا لا صلة له بنظام الزكاة .

ولما تؤخذ الأموال الازمة له من شتى الضرائب والالتزامات ، التى تفرضها الدولة ، كيف تشاء ، ومتى تشاء ^(١) .

هل تغنى ضريبة الأرض عن زكاتها..؟

كتب الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف - رحمه الله - تحت هذا العنوان بحثاً قيماً ورد فيه :

«إن الضريبة التى تحصلها الحكومة عن الأرض الزراعية فى مصر هى خراج توظيف ، وملاكُ هذه الأرض الخارجية ليس عليهم فى مذهب الحنفية زكاة . . .» .

وهذا النقل من مذهب الحنفية صحيح ، ولكنه عند التمحص العلمى والرجوع إلى النصوص الخاصة والقواعد العامة فى ديننا الحنيف لا يمكن قبوله .

وقد تكون هناك ملابسات أوحَتْ بهذا الحكم قدِيماً .

أما الآن فلا وجه لاستقراره ، بل لا معنى للقول به .

وليس الرفق بالفقراء هو الذى يبعثنا على مناقشة هذا الرأى ، بل كشف النقاب عن الحق المجرد فقط ، ثم تأتى رفادة الفقراء منه تبعاً .

إن الزكاة - كحق لله فى مال الإنسان - شيء يغاير الجزية والخراج والضرائب الأخرى ومصارفها التى وصفها القرآن الكريم ، وحصرها فى طبقات معينة ، غير مصارف الأموال التى تستولى عليها الدولة بأى اسم آخر ، ولأى سبب آخر .

ولا مكان للخلط بين حصيلة الزكوات ، وموارد الخزينة الأخرى ألبته .

فالأساس فى فرض الضريبة ، الإنفاق فىصالح العامة ، التى تعود - بطريق غير مباشر - إلى دافعاتها ، فى شكل حراسة للأمن ، وتمهيد للطرق ، وإقامة للجسور ، وحفر للثرع . . . إلخ .

(١) دون تعسف أو ظلم .

وما دامت الحكومة تخدم الفرد في نواحٍ شتّى ، فمن حقها عليه أن تتتقاضاه ثمن هذه الخدمة .

فالضريبة إذاً سداداً لصلاحة شخصية .

أما الزكاة والصدقات فأساس فرضها تكليف المؤمن ، أن يقوم بشيء ، من حق أخيه المؤمن عليه ، وقوامها البر والإيثار والرحمة .

ولا يجوز صرفها في المصالح المدنية العامة .

المعنى العبادي ملحوظ في الزكاة من الناحيتين الفردية والاجتماعية .

فهي من الناحية الخاصة شكر الله على نعمائه ، وتقرب إليه بإنفاذ أمره وقربة يتوصل بها لتطهير النفس وغفران الذنوب ..

وهي من الناحية العامة صلة للأرحام ، ودعم للأخوة الدينية ، وتقريب للطبقات المتفاوتة في الرزق ، وغسل للأفئدة من الأحقاد والخصومات ..

أما الضريبة فهي أدخلت في دائرة العادات التي تواضع الناس في كل القرارات على إقرارها ، ضماناً لمصالحهم المشتركة ..

والناس في كل زمان ومكان لا يرون حرجاً في دفع الضرائب للحكومات على شرط واحد ، ألا توظف هذه الضرائب في مأرب أسرة غالبة أو فرد متحكم .

ومن هنا انتهت الشعوب إلى أنه لا تفرض ضريبة إلا بموافقة المجالس النيابية ، وألا تنفق إلا في الوجوه التي ترضيها هذه المجالس الممثلة للأمة ..

والدين يدخل في دائرة العادات مقوماً للعوج ومانعاً للانحرافات ، وهو يرى أن شئون الدنيا إذا خالطتها النية الصالحة رفعت قدرها ، وجعلتها عبادة مأجورة .

ولكن شئون الدنيا - في ظل القواعد الكلية وما جاء من نصوص - موكولة إلى علم الناس وتقديرهم على أية حال .

ونستطيع من الناحية الإسلامية أن نضيف شيئاً آخر .. إن ضريبة الدفاع عن الدين والوطن تشبه الزكاة في أنها عبادة محتملة ، ولكنها تختلف عنها في أن الجهاد بالمال والنفس لا يقف عند حدود مرسومة .

فإذا طلب الجهاد فرض ضرائب باهظة النسبة ، فلا حرج ، ونحن لن ندخل بأموالنا ، إذا بذلك أنفسنا . !!

والهم تحيص الأعمال لله وتخليصها من شوائب العبث السياسي والأمجاد الشخصية .

وقد يقع تماس بين دائرة الزكاة ، ودائرة الضريبة فتتناول هذه ما تتناوله تلك ، بيد أن هذا التلاقي الجزئي لا يمحو الفروق الكبيرة بينهما ، فالزكاة شيء والضريبة شيء آخر ، وأحدها لا يغني عن الآخر .

والقول بأن أنواع الضرائب تسد مسد الزكاة نوع من الاحتيال على إقصاء الدين كله ، والتحفف من فرائضه ونواfelه .

أما ما اعتمد عليه المرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف في عدم الجمع بين الزكاة والخروج فمردود من أصله . . .

إن المسلمين لما طردوا الرومان من مصر وسوريا وطردوا فارسًا من العراق وغيرها ، وضعوا عن الجماهير المخالفة في الدين عبء الدفاع عن البلاد مقابل دفع الجزية عن الأشخاص والخروج عن الأرض . . .

فإذا أسلم من شاء الدخول في دين الله سقطت الجزية عن شخصه والخروج عن أرضه وحلت الزكاة والضرائب العادلة محل التسميات القديمة .

وقد أخرج أبو داود في سننه : أن رسول الله ﷺ قال :

«إما الخراج على اليهود والنصارى ، وليس على المسلمين خراج» .

وروى أبو داود كذلك : «ليس على مسلم جزية» .

ولا نريد الآن ذكر ما صنعه عمر بن الخطاب في أرض السواد ، أيام كان أهلهما كُفَّاراً .

أما بعد إسلامهم ، فمسألة الخراج هذه ، لا ينبغي أن تتجاوز حدود الذكريات التاريخية ، كمسألة الجزية سواء بسواء .

للدولة أن تفرض من الضرائب ما تشاء ، في حدود المصلحة العامة ، وليس هذا بكافٍ مطلقاً عن إخراج الزكاة .

ولو صح سقوط الزكاة في الزروع والشمار لسقطت كذلك في التحارات وسائر الأموال التي تلاحقها الحكومة بالضرائب الباهظة .

بل الحقيقة أن ضرائب الأطيان قد تكون أقل كثيراً مما ينفق عليها من قبل الحكومة .

ففي ميزانية ١٩٤٩ - ١٩٥٠ - لمصر كانت قيمة هذه الضرائب ٤,٧٠٠,٠٠٠ جنيه ، بينما بلغت ميزانية مصلحة الري وحدها ٦,٢٠٠,٠٠٠ جنيه .

أى أن الدولة ترهق بعض الطوائف الأخرى من دافعى الضريبة ، لكي تحفظ للأرض الزراعية خصبها وصلاحيتها ومستوى إنتاجها .

فكيف تعفى هذه الأرض من الزكاة؟ ولماذا؟!

إن نص القرآن عام ، ففي أن كل مسلم يؤتى الزكوة .

فما الذي يخصص هذا النص من الدلائل الأخرى؟!

والسنة صريحة في أن المسلم لا يدفع جزية ولا خراجاً .

فما الذي يحملنا على تضييق مصارف الزكوة ، وتسمية ما يدفعه الفلاح خراجاً ، يذهب إلى المصالح العامة؟!

ذاك رأى أطروحة للمناقشة والدراسة ، ولكنه وقر في نفسي ، وأعتقد أنه جدير بالشروع والاتفاق . . .

* * *

بعد خمس وعشرين سنة من نشر هذا البحث^(١) ، ورفض البعض له قرأت بحثاً نفيساً في الزكوة للأستاذ الشيخ « محمد أبو زهرة » وجدت فيه تأييداً تاماً لهذا الاتجاه ، قال فضيلته في هذا البحث :

الأموال النامية التي جدت في هذه العصور :

« .. تبين ما سبق أن العلة في فرضية الزكوة التي يناظر بها الحكم بوجوبها هو النصاب النامي بالفعل أو بالقوة ، أى القدرة على تنميته وإن لم يعمل على تنميته بالفعل . وأن هذه العلة تؤخذ من تعليلات الفقهاء في مواضع مختلفة . ويتبع الأموال التي تجب فيها الزكوة فهـى في النقود لأنها نامية بالقوة . وتجب في الزرع والشمار لأنها نماء الأرض والشجر . وتجب في السائمة لأنها تنمو بمضي الزمن ولا تجب في الأموال التي تكون لسد الحاجة الأصلية أو للاقتناء المباح شرعاً .

ولذلك لم يوجبها في المسكن المعد لسكنى رب المال ، ولا أدوات الصناعة التي يعمل بها الصانع .. وهكذا .

(١) مجلة الإخوان المسلمين العدد ٢٤ .

ولقد فرض النبي ﷺ الزكاة في النقود وطبقها الصحابة من بعده في عروض التجارة .
وفرضها - عليه الصلاة والسلام - في الزروع والثمار ، وفرضها في النعم واستنبط
الفقهاء علة الزكاة في هذه الأنواع وهي أنها مال نام .

فهل إذا وجد في هذه العصور أموال نامية بعضها لم يكن ناماً في عصر النبي ﷺ ولا في عصر الصحابة ولا الأئمة المجتهدين فهل يسوغ لنا أن نفرض فيها الزكاة
تطبيقاً للعلة التي استنبطها الفقهاء لحكم وجوب الزكاة؟
وإذا فعلنا ذلك لا نكون قد أتينا ببدع في الأحكام الشرعية؟

والجواب عن ذلك : أن هذا سائع لنا . ونحن فيه لا ننشئ اجتهاداً ولكن نطبق علة
القياس كما لرأينا مواد مسكرة غير ما كان معروفاً في عصر الاجتهاد الفقهي من
مشروبات ، فهل نبيحها ونقول إنه لم يرد نص فقهي بتحريها ونقول إن تحريها تزيد لا
يجوز؟!!

* * *

« إنه يجب إذاً تطبيق العلة وعندنا مسوغات ثلاثة من أقوال الفقهاء :
أولها :

أن النبي ﷺ قال :

« ليس على المسلم في فرسه وغلامه صدقة » . وهذا متفق عليه .

وروى الترمذى أن النبي ﷺ قال :

« عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق » .

وهذا صريح في المنع :

ولكن الإمام عمر رضي الله عنه فهم أن منع الزكاة في الخيل كان لقلتها ولأنها لم تتخذ
إياباً ذلك للتنمية ولم تكن سائمة . ولما رأها كثرة واتخذت للنماء وكانت سائمة
كالنعم فرض فيها الزكاة . وما كان كلام النبي ﷺ منعاً للزكاة فيها ، ولكنه كان عفواً
اقتضاه الاحتياج إليها في الحروب . ولذلك قال عليه السلام : « عفوت لكم » وإن كلمة
العفو تفيد أن الموضع موضع زكاة ولكن لم يتواتر السبب . ولذلك أجمع الفقهاء على
أن الخيل والعيال إن كانتا للاتجار وجبت الزكاة على أساس أنها عروض تجارة فوجد
سبب الوجوب .

وكذلك إذا وجد سبب النماء فالحكم هو الوجوب وقد روی عن عمر رضي الله عنه أنه كان يأخذ عن الفرس عشرة دراهم . وعن البردؤون خمسة دراهم .

وقد اتبع الإمام عمر في هذا وفي تطبيق العلة أبو حنيفة رضي الله عنه فقد روی عنه أنه قال :

« إن كانت الخيل ذكوراً وإناثاً كانت فيها زكاة ». .

وروى عنه أنه لا يشترط أن يكون فيها ذكور وإناث بل إنه تجب الزكاة ولو انفرد أحد الصنفين والسبب هو أنها تتخذ للنماء .

وزكاتها عند أبي حنيفة رضي الله عنه : دينار عن كل فرس أو ربع عشر قيمتها . ولعله لاحظ أن يكون الدينار مساوياً لربع العشر .

وإن هذا يسوغ لنا أن نقلد أبو حنيفة ومن قبله الإمام عمر في تطبيقه النصوص من حيث تعميم العلة .

ثانيها :

« أنه روی عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن كانت له غلة تجبيه من أجرة داره فكان يخرج الزكاة عن تلك الغلة كل عام ولما قيل له في ذلك قال :

أنا أذهب إلى قول عمر بن الخطاب في أرض السواد إذ كان يأخذ الزكاة منها»^(١) .

واقتداه الإمام عمر من حيث إنه اعتبر غلة الدار كنماء الزرع فما يؤخذ منها هو ما يؤخذ من خراج على الأرض ، وما يؤخذ من زكاة عن الزرع ، وقال ذلك مع أن الدور كانت من الحاجات الأصلية ولم تتخذ للاستغلال إلا نادراً .

ثالثها :

أن فرض الزكاة في الأموال التي ظهرت في هذا العصر أو في الأموال التي تغير وصفها عن الماضي إذ كانت في الماضي تتخذ للحاجات وصارت الآن أموالاً نامية كالمصانع الكبيرة والعمائر التي تتخذ للاستغلال والحيوانات التي تتخذ للنماء .

إن فرض الزكاة في هذه الأموال ليس خروجاً على أقوال الفقهاء السابقين . بل تطبيق لأقوالهم بأن نعمم حكم العلة في كل ما تتحقق فيه ، وهذا يسمى تحقيق المناط .

وتحقيق المناط لا يصح أن يخلو منه عصر من العصور .

(١) مناقب الإمام أحمد ص ٢٢٤ .

وقد قال في ذلك الشاطبي في المواقف ما نصه :

الاجتهد على ضربين : أحدهما : لا يمكن أن ينقطع حتى ينقطع أصل التكليف وذلك عند قيام الساعة . والثاني : يمكن أن ينقطع قبل فناء الدنيا .

فأمّا الأول - فهو الاجتهد المتعلّق بتحقيق المناط ، وهو الذي لا خلاف بين الأمة في قبوله (ومعناه أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي . ولكن يبقى النظر في تعين محله) .

أى في تطبيقه على الجزئيات والحوادث الخارجية .

وبعد أن يضرب الأمثل المختلفة يقول عَزَّى اللهُ :

« ويکفيك من ذلك أن الشريعة لم تنص على حكم كل جزئية على حدتها وإنما أتت بأمور كلية وعبارات مطلقة تتناول أعداداً لا تتحصر . ومع ذلك فلكل معين خصوصية ليست في غيره ولو في نفس التعين » .

ثم يقول :

« فالحاصل أنه لا بد منه . وبالنسبة إلى كل ناظر وحاكم ومفت ..

ولو فرض ارتفاع هذا النوع من الاجتهد لم تنزل الأحكام الشرعية على أفعال المكلفين إلا في الذهن»⁽¹⁾ .

وإن تعميم الأحكام الخاصة بالزكاة في كل ما يتحقق فيه العلة يؤدى إلى أمر حق وينع أمرًا ظالماً لأنه يؤدى إلى المساواة العادلة بين الناس فلا تجب الزكاة في زرع من يملك فدادين ، ويعفى منها من يملك عمارة فخمة ضخمة تدر عليه دراً كثيراً يساوى عشرات الأفدنـة .

ولا يعفى من كان له رأس مال وضعه في مصنع يدر عليه ربحاً فائضاً كبيراً .

والأمر الظالم الباطل الذي يمنع فرض الزكوات على الأموال التي تدر مالاً كثيراً ولم تكن في عهد الرسول هو أن يفتر الناس ما تجب فيه الزكاة إلى ما لا تجب فتكون الكثرة الكاثرة في جانب من أبواب الكسب والقلة في باب آخر . وربما كانت حاجة الأمة إليه أمس وأشد .

على ضوء هذه الحقائق المقررة نقول :

«إن كل مال يتحقق فيه النماء والشروط التي ذكرها الفقهاء تجب فيه الزكاة ولو لم يكن جاء به النص عن رسول الله ﷺ فإن القياس ثابت في الفقه الإسلامي وتطبيق موجب القياس ثابت في كل العصور والأزمان ، وهو نوع من الاجتهد لا يصح أن يخلو منه عصر من العصور ليمكن تحقيق علة النصوص تحقيقاً علمياً سليماً» .

(1) المواقف ج ٤ ص ٨٩ إلى ٩٥ .

الأوضاع الاقتصادية

للله حقٌ في مال الإنسان ، فهو واهبه الأول ، وللجماعة حقٌ في مال الإنسان فهي البيئة التي نبت فيها وعاش في جوها ، وخدمته شتى عناصرها ، خدمة مباشرة أو غير مباشرة ، فلها أن تتقاضى ثمن ذلك .

وكما أن حرية الإنسان الشخصية مقيدة بـالإيُضار منها المجتمع ، فكذلك حرية الماليية .

فلل المجتمع أن يتدخل في مال الإنسان ، التدخل الذي تليه الاعتبارات الدينية والمدنية ، التي يراها لازمة ، لاستقامة الأمور ، وإقرار المصلحة .

ولما كان رأي الدين : أن «الضرورات تقدر بقدرها» فمدى تدخل المجتمع في مال الفرد ، يضيق و يتسع وفق ما تُوحِي به مقتضيات الأحوال العامة .

فإطلاق الملكيات أو تقييدها ، ووضع حد أعلى أو أدنى للضرائب على رأس المال أو على الدَّخْل ، وجعل المافق العامة ملكاً للدولة أو للأفراد ، هذه كلها أمور يُخْضِعُها الدين حاجات الناس وأطوار الزمن .

ولنا أن ننظر إلى حاجات شعبنا ، ومطالب عصربنا ، وأحوال وطننا ، ونضع لأنفسنا ما نشاء من النظم الاجتماعية والاقتصادية ، التي نراها كفيلة بتحقيق أهدافنا الكبرى ، في ميادين الإصلاح العام .

والشعب - في الحقيقة - يدفع باليمين ما يأخذ بالشمال . فما يأخذ منه ، يُرَدُّ عليه وينفق في مصلحته .

ولا يجوز - أبداً - أن تستغل أموال الشعب في النواحي الشخصية لأحد ، لينفق منها على زينته ، أو يسرف في أبهته .

فما لهذا تشرع الضرائب ويحل جمعها .

والحكومة الصالحة هي التي ترتب أبواب ميزانيتها لخدمة الشعب والنهوض به ورفع مستوىه .

وإن كنا - مع الأسف - نرى مسارب المتع الشخصية لا آخر لها ، فيما تنفقه الحكومات ، باسم الشعب .

وخطط الإصلاح التي رسمناها توجب علينا - دينًا ودنيا - أن تشكل أوضاعنا الاقتصادية على نحو جديد ، إن كنا حقًا جادين في دفع غوائل الفوضى والفساد عن بلادنا .

وأمامنا صور حية ، وبرامج مدرورة ، وأنظمة مطبقة في كثير من أقطار الأرض ، يجب أن نقتبس منها ، ما نقيم به العوج ، ونحسن به الداء . ونقترح - على سبيل المثال لا على سبيلحصر - الحلول الآتية لإنهاء بعض مشاكلنا السياسية والاجتماعية والأخلاقية .

* «تأمين» المرافق العامة ، وجعل الأمة هي المالكة الأولى ، لوارد الاستغلال ، وإقصاء الشركات المحتكرة لخيرات الوطن ، أجنبية أو غير أجنبية ، وعدم إعطاء أي امتياز فردي من هذا القبيل .

* تحديد الملكيات الزراعية الكبرى وتكوين طبقة من صغار المالك ، تؤخذ نواتها من العمال الزراعيين .

* فرض ضرائب على رءوس الأموال الكبرى يقصد بها تحديد الملكيات غير الزراعية .

* استرداد الأموال التي أخذها الأجانب ، وإعادتها إلى أبناء البلد وتحريم تملك الأرض المصرية على الأجانب ، تحريماً مطلقاً .

* ربط أجور العمال بأرباح المؤسسات الاقتصادية ، التي يعملون فيها بحيث تكون لهم أسهم معينة ، مع أصحابها في الأرباح .

* فرض ضريبة تصاعدية على التركات ، تتفق في وجوه الخير على النحو الذي أشار به القرآن إذ يقول :

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (١).

هذه خطوط صغيرة ، نهد بها لجعل الأمة طبقات متوازنة . لا طبقات متعددة ، ونختتم بها المأسى التي تخوض عنها نظام الطبقات المعروف بظلمه ومخاذه .

ثم يجب بعدها أن تتحى الأمية محوًا تامًا ، وأن تعمم مراحل التعليم الابتدائي والثانوي ، وأن يجبر كافة الأفراد على الانظام في التجنيد العسكري وأن تتكافأ

(١) النساء آية ٨.

الفرص ، أمام أبناء الأمة جميعاً ، فيأخذ نصيبيهم من الحياة الصحيحة وأن تلغى الألقاب الجوفاء ، فلا تبقى إلا الألقاب العلمية والعسكرية ونحوها ، وأن تصادر ضروب التحلل الخلقي والإلحاد الديني ، وأن يعني بتربية الطفولة تربية طيبة ، وتوجيهه الرجولة توجيهها سديداً فاضلاً .

وأن تتضخم ميزانية الدولة لتنفيذ هذا المنهاج ، فلا يجوز أن تكون هناك عوائق اقتصادية ، تحول دون أن تنتفع به الأمة وترتفع .

ولولم يبقَ لكل فرد من أفراد الشعب إلا قُوَّته الضروري ، لما جَازَ أن تتراجع الدولة في تحقيق هذا البرنامج ، الذي تعلن به الحرب على الظلم والجهالة والاستعمار!! .

أجل فلتفرض الدولة على الأموال ما تشاء من القيود ، وعلى الأموال ما تشاء من الضرائب ، وعلى الأوضاع الاقتصادية ما تشاء من الأنظمة ، فإن الدين ظَهِيرُها في هذه الوسائل السهلة أو الصعبة ، مادامت تريد من ورائها حماية جمهور الشعب ، من أن يسقط فريسة سهلة للاستعمار الداخلي أو الخارجي على السواء . . !!

وفي سبيل الإبقاء على كيان الأُمَّة ، يهون البذل عن سعة ، والإنفاق في سخاء !

حقائق مؤسفة :

كنت أتردد على الريف بين الفينة والفينية ، بُعْيَةَ الاستجمام ، فما أدركتني قُطُّ ، عواطف الشعراء ، حين كنت أعيش بين أهله ، وأخالطهم عن كثب .

وما فرَّجَ عن قلبي ما يَتُوَهُمُ وجوده هناك ، من الماء والخضرة والوجه الحسن ! .

فإن نظرتى للأشياء ، واقعية اقتصادية ، لا أثر فيها للخيال ، ولا تطلع فيها للجمال . . .

الماء؟ .. إنه عَكِّرٌ ، يشربه الناس ، ويشربون معه شتى الجرائم فهو لالرتواء وللداء معًا !

والخضرة؟ .. إن هذه الزروع اليابعة ، يمضى في ظلالها المستأجرون الهلكى أو الملاك المدينون ، وعلى ملامحهم من غبار الأرض ، قَتَّامٌ حافل بالنذر من المستقبل المريب ! وحتى الدواب سرت إليها - هي الأخرى - العدوى فهي عِجَاف ساهمة ، برغم نشاط وزارة الزراعة ، في تلقيحها بالأمصال الواقعية .



والوجه الحسن! أين ترى الوجوه الحسان بين هذا الماء وهذه الخضر؟

إن الجمال مُسخٌ في فتيان الريف وفتياته .

فالكثرة الساحقة من الرجال والنساء ، فيها صور مجملة ، لأبناء آدم .

أما الملامح التفصيلية ، ففيها تحريف كثير ودمامة والتلواء ، ترك على الجبين الكادح عروقاً نافرة ، وعلى الوجوه الساهمة غضوناً غائرة .

ثم هناك شلل في نماء هذه الأجسام ، فلما ترى معه الهامات الفارعة ، والعضلات الحافلة .

ولولا إلغاء الجيش المرابط ، لرأينا في شوارع المدن «عينات - غاذج» كثيرة لهذه التعasse السائدة ، خفف من شدتها بعض التجميل والتصحيح ، الذي يفرضه النظام العسكري .

تلك هي حال الريف .. حال المستودع الذي تأخذ منه الدولة الرجال والأموال .
وتترك أسباب الفناء تَعْمَلُ فيه عملها الشنيع .. !

فإذا تركت الريف إلى المدن ، وجدت مظاهر الرخاء والنعمـة منتشرة هنا وهناك ، ولكن حظ المصريين في هذا كله ضئيل . إذ إن الميادين والشوارع الكبرى تكاد تكون وفقاً على رءوس الأموال الأجنبية! .

ولسنا ننفي أن للوطنيين حظاً في هذه الأعمال والمشروعات الضخمة .

غير أن الأجانب يظفرون منها بنصيب الأسد .

ولا تزال الأحياء الوطنية أمثلة باقية ناطقة بالفوضى العمرانية ، والهون والهوان المادى والأدبى الذى يعيش فيه جمهرة الشعب .

وكم في الغرف الحقيرة ، والأزقة المظلمة ، والخرائب المتهدمة ، من كفاليات مقبرة ، وعزائم مقهورة ، ونفوس نسيت النور من طول ما قبعت في الظلام! .

عندما أزور « مصر الجديدة » يلفت نظري ما يبدو على هذا الحي الفخم من سعة وجمال ونظافة ، وما يستمتع به أهلوه من راحة وطمأنينة ، وتذوق للحياة الطيبة .

وليس هذا ما أريد أن أسجله ، إنما الذي أريد تسجيله ، أنه - إلى جانب هذه القصور الشاهقة ، والمباني الرائعة - توجد أرض أخرى في أحياط قريبة ، عليها بيوت كأوكار الشعاليب ، وفيها وحشة كأنما خلعتْ عليها من صمتِ القبور .

يقطنها أقوام ، عضُّهم البُؤس ، ولَفَّهم في أرداته الكثيبة .

وهذه الأرض - بما عليها من جدران وقطعان - تسمى « عزبة المسلمين » .

والحق أن هذه التسمية تترك في القلب ألمًا يمضاً وأسفًا عميقًا! . وتجعل الرجل يخجل من نفسه ، ومن جماعته ، ومن دولته . . . وتجعله يشعر ما في هذه التسمية من غمز وتحقير! .

لا لسلمي مصر فحسب ، بل لل المسلمين في مشارق الأرض وغاربها .

ولعل سر هذه التسمية ، أن شركة أجنبية ، هي التي تولتْ بناء الجزء الفخم في الحى الفخم ، تاركة لنا أن نعمر عزبتنا الحقيرة بأيدينا ، إن استطعنا التعمير .

ونحن مذهلون عن ذلك ، لأننا مقيدون بيراث ثقيل ، من سوء الفهم في الدين والدنيا جميًعاً . ومشغولون عن التعمير المادى والأدبى ، بالثرثرة الإصلاحية ، والألاعيب السياسية ، والمشاغل الشخصية . . .

ولا علينا أن تكون منزلينا الاجتماعية ممثلاً في عزبة إلى جانب قصور . فإن منزلينا السياسية في العالم ، منزلة الخرب من المعمورة ، أو الظلام من النور . . .

* * *

وقالوا : إن الحكومة صَحَّ عَزْمَها على مكافحة الجهل والفقر والمرض .

وسواء كان الغرض من المكافحة تأمين البلاد ضد الشيوعية ، أو قطع حُجَّةَ الإنجليز في صلاحية مصر للاستقلال ، أو الرحمة الحقيقة بعباد الله ، من أن تأتى على بقائهم أخطار هذا الثالوث الوبييل .

أيًّا ما كان الأمر ، فإن هذا عَزْمٌ نَسَرَّ به ، ونرجو أن يأخذ طريقه إلى الحياة والنمو .

ولكن بوادر التنفيذ إلى الآن توحى بأنَّ الأمر هَذُلٌ لا جدًا !!

والدعائية التي سبقت مشروع المكافحة ، لم تتمخض عن أمر ذي بال .
فقد وكل إلى «الروتين» الحكومي المعتمد ، وإلى بعض المجالس والمصالح المعروفة ،
أن تقوم على إنقاذ البلد من أخطار هذا الثالوث الفتاك ! .

ومع أن الحالة تحتاج إلى تجديد عام ، وإلى تسخير أبواب الميزانية - جلها إن لم يكن كلها - لإنقاذ الوطن من هذه الأعداء الداخلية المتغلغلة في تربته ، من قديم .

إنهم لو ألهوا وزارة مختصة بعلاج هذه المشاكل ، على نسق وزارة الشئون الاجتماعية ، ما استبشرنا بذلك خيراً .

فمشاكلنا أعقد من ذلك وأعصى ، على مثل هذا العلاج الضعيف .

غاية ما سيحدث ، أن أموالاً ترصد ، وموظفين يعينون ، ومشروعات يعلن عنها ، ثم يبقى الجهل والفقر والمرض ، كما بقيت أوضاعنا الاجتماعية مختلة ، لم تصلحها الوزارة التي ألهت باسمها ، وكونت لإصلاحها .

وعندما يذهب المريض إلى طبيب يشخص له الداء ، تشخيصاً مغلوطاً ، ثم إلى صيلى يركب له الدواء تركيباً مسموماً ! .

فأني يجىء الشفاء ، وكيف تنتظر النجاة؟!

إن الحكومات المتعاقبة ، تتجاهل مصدر الشر وأساس البلاء ، وهي تبذل الأموال ، وتسخر الرجال لغسل الظل المرسوم على الأرض ، ولا تفكر في أن تزيل الجسم ، الذي يلقيه إلقاء ويشتبه إثباتاً . . . !!

وقد تنكمش - لعوامل خارجة - ظلال الأحزان التي تغمر بناء هذا الوادي ، ولكنها لن تزول ، إلا إذا زالت الأوضاع المعوجة ، وإنما إذا طلعت الشمس ، فلم تجد أشعتها عائقاً ، يرد عن الناس أسباب الضياء والنمو .

* * *

المجتمعات المسخطة لا يزدهر فيها دين

جهد ضائع :

حيث يوجد الهوان المادى والأدبى لا يُرجى خير ، ولا يؤمن شر ، فالإنسان المغلق الخامل الحطم ، لا ينتفع بالدين ، ولا ينتفع به الدين ! .

ما الذى يفいで الإسلام من رجل طمسَتْ حياته ، وشاهدَ ملائكته ، وعاش على ظهر الأرض حفنةً من ترابها ، أو قطعة من صخورها؟

إن الإسلام لا يستفيد شيئاً من هذا الشخص . بل إنه يُضارُّ به ويَهُونُ فيه . والإباء الملوث يُزَرِّي بأطهر السوائل ويبخس قيمتها .

كذلك الشعوب العاجزة الكسولة ، تحط من مكانة الأديان التي تعتنقها ، وتهبط بمستوى العقائد التي تنتهي إليها . !!!

وكما أن الدين لا ينتفع بتابعه الهين ، فإن التابع الهين لا يحسن الانتفاع مما سيق إليه ، من مواريث نفيسة ، ولا مما أحاط به من مبادئ غالبة ، كالجاهل الذي يلقى نفسه في مكتبة حافلة ، أو المعمود الذي يواجه مائدة مفعمة !! .

بل إن الأتباع الحمقى ، كثيراً ما يفرضون سفههم على أسمى الحقائق ! .

فبدلاً من أن يرتفعوا معها إلى القمة ، يهبطون بها إلى السفوح !! .

ومن ثم يجب أن نقر هذه الحقيقة ، في علاجنا لمشاكلنا المعقّدة .

إن شعوب الشرق الإسلامي تحتاج - قبل أن تفهم الإسلام ، وقبل أن ينتظر منها إعزاز الإسلام - إلى جهود جبارة ، لرفع مستواها المادى والأدبى .
أى إلى تصحيح إنسانيتها أولاً .

حتى إذا كُوِّنَّا الإنسان الذى يعقل ما يُخاطبُ به ، ويعرف واجبه نحوه ، قلنا له :
انصر رَبَّكَ ونفسك ، إذا شئت الحياة الكريمة فى يومك وغدك .

أما جهود المصلحين - قبل اتخاذ هذه الخطوة - فهى أمواج من الماء ، تتدفق على صحراء من الرمال .. هيهات أن يكون لها ثمر !! .

ما الدين؟

والدين في حقيقته؛ ليس إلا إكمالاً لشاعر الإنسان، وتصحيحاً لمواهبه. فهو عقل يحسن التفكير، وعين تحسن النظر، وأذن تحسن السمع، ويد تحسن العمل...
والمؤمن على هذا - إنسان ناضج الفهم، والتأمل، والحكم على الأمور.
إنسان جيد الإنتاج والأثار والتصرفات...

فإذا اضطربت هذه المعانى في نفسه، اضطرب معها مصدر الإيمان في قلبه ولبّه، وتقلصت معها حقيقة إنسانيته.

ولا تزال طوائف من الناس تفقد إيمانها وإنسانيتها معاً، حتى تدمغ بوصف القرآن لها:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُ الْبُكُمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١).

والمرء يستحيل دابة، يوم يموت فيه عقله المفكر، وترتكس فيه مشاعره اليقظة، فيصبح غير مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده، لأنّه ليس له من ذلك إلا ما للحيوان السائم. حواس مسخرة في أغراض الحياة الدنيا فقط.

وأمثال هؤلاء هم - مع الأسف العميق - قوام الجماهير الغفيرة، التي أعمها الجهل، وأوهاها المرض، وأهانها الفقر، قوام الكتل الضخمة من البشر، الذين يَرْجِعُ بهم الشرق، ولا يتقدم بهم إلى الأمام خطوة، بل يتأخر بهم خطوات، أو هُمُ التراب، الذي تبرد فيه حرارة الإسلام وتتبدّد قوته، كدين موجه فعال.

هذا الهاون المادي الأدبي، لا ينبغي حسبانه ديناً، أو ظلاّ لدين!

فهو عار ولدته بيئات أثمة لا تتصل بالدين إلا ادعاء، ولا يتصل بها الدين إلا مشوّهاً مظلوماً مفترى عليه!

ولكى نطمئن إلى وجود ديانة صحيحة وأتباع محترمين، يجب أن نسارع إلى محو كل أثارة للفقر والجهل والمرض، وأن نخلق جيلاً جديداً، يصلح - بفطرته - لأداء الرسالات الكبرى، وحمل أعبائها.

(١) سورة الأنفال آية ٢٢.

رجال ورجال

كلما نظرت إلى الرجال والنساء ، في الريف البائس المكروب ، أو في زحام الأحياء الوطنية بالمدن ، أو حيث أعمل لوعظ الناس بالمسجد وأشاهدها من الأندية الدينية ، كنت أرى أن هناك حلقة مفقودة ، لابد منها ، ليتصل هؤلاء الناس بالدين ، اتصالاً مُجدياً عليه وعليهم .

فقد يحدث أن تبذل وقتاً ، في تطبيب دابة جريح ، وأن تبذل الوقت نفسه في إصلاح سيارة عاطلة ، أو طيارة مهيبة .

ولكن النتائج التي تحصل عليها من وراء هذه الجهود ، تتفاوت تفاوتاً كبيراً .

والذى يركب الدابة بعد شفائها ، غير الذى ينطلق بالطائرة بعد إصلاحها ! .

والتبشير بالدين بين الشعوب البليدة الوانية المترنحة ، قد يكسب الدين عدداً من الأنصار الكسالى ، أو الأتباع السكارى . . .

فهل هذه الثمرة ، هي التي تحصل عليها ، لو جئت من بداية الأمر ، فعملت على فتح العقول المغلقة ، وإناء الموهب المشلولة ، وإعزاز النفوس الكسيرة ، وإبراء الأكمه والأبرص؟!

فإذا قدمت للدين بعد ذلك أحداً ، قدّمت قوّة ، يعمل به ، لا عقبة يضطرب خيالها . !!

إن النبي - صلوات الله وسلامه عليه - ، وجه دعوته الأولى للعرب ، وهم - على كفرهم الموروث - قوة لا يُستهان بها في موازين الرجولة .

أجسام لم تستنزفها الأمراض المتقطنة ، وكفايات خلقية عارمة ، لما كانت في جانب الضلال ، جعلته مرهوب العداون ، فلما نقلها صاحب الرسالة العظمى من الغى إلى الرشاد ، جعلت الحق مهيباً ، وطُوّفت به أقطار الأرض ، تصارع دونه الأبطال ، وتزلزل أمامه الجبال .

وأمام الشعوب الإسلامية الآن مراحل من صحة الأبدان والأخلاق ، ومن كفاية العمل والنظام ، ومن روعة الإنتاج وإنصاف الموهب . . .

مراحل طويلة يجب أن تقطعها على عجل ، حتى تقف على قدم المساواة ، أمام شعوب الغرب الكافرة بالإسلام ، بل التمردة على الديانات جملة .

إن هذه الأم المحسوبة على الإسلام ، لن ترفع به رأساً ، ولن ترفع له علماً ، مادامت تعيش في هذا الدرك من الهوان الإنساني .

قيمة العقل في الدين :

إن حدة الذكاء ، ويقظة الفكر ، واستنارة الرأي ، عناصر لابد منها في تكوين الإيمان الصحيح ، فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين ، وانتفت معها الريبة .

وحيث لا يوجد الإدراك الواضح ، والفهم الناضج ، يصبح اليقين غير ذي موضوع !!
ولا يحسب أحد أننا بذلك نظلم البلياء ، أو نغنم الحقائق حقهم - إن صحت لهم حقوق - بل إننا نستوحى هذا الحكم ، من نصوص القرآن الكريم نفسه .

فالعقل الذكية وحدها هي التي تستطيع اختراق أسرار الكون ، ومعرفة آيات الله في شتى الأمكنة والأزمنة :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِ الْعُلَمَاءِ ﴾^(١) .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَّأُولَئِكَ الْأَلْبَابُ ﴾^(٢) .

والعقل الذكية وحدها ، هي التي تميز الحق من الباطل ، وتعرف حقائق الوعي ، من نزعات الهوى وتلبيق الضلال :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾^(٣) .

والعقل الذكية وحدها ، هي التي تستفيد من عبر الماضي ، وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل ، وقصص الأبطال أو الأنذال ، من المصلحين أو المفسدين :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لَّأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾^(٤) .

(١) فاطر آية ٢٨ .

(٢) آل عمران من آية ١٩٠ .

(٤) يوسف آية ١١١ .

(١) فاطر آية ٢٨ .

(٢) الرعد آية ١٩ .

ولا تكون الحكمة في معالجة الأمور ، والدقة في الحكم على الأشخاص والمسائل ، والبصر بالمقدمات والنتائج ، إلا لأصحاب العقول الراجحة ، والمدارك الواسعة ، والمواهب الرائعة :

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدَّكَرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١)

وتربية العقول ، وإذكاء المواهب ، وتفتيق الملائكة الإنسانية ليس أمراً هيناً .

فمراحل التعليم في المدرسة ، ومراحل التجريب في الحياة ، واستيراد الأفكار البعيدة ، وضم ما لا نعرف إلى ما نعرف ، والنظر في الجديد نظرة تلطف وإيلاف ، لا نظرة جمود واعتساف ، والتطويف في آفاق العوالم المادية والأدبية .

هذه جميعاً ، وسائل العقل الإنساني ، ثم هي بعده وسائل العقل السليم لمعرفة الله ، وحسن الإيمان به ، والإفادة من دينه .

إن عمل العقول الكليلة في آيات الوحي ، هو عينه عمل الحشرات القارضة في أوراقه ، عندما يدب فيها البلى ، تتلفها ولا تعرفها ، وتطلّمها ولا تنصّفها .

وذلك سر التدهور الاجتماعي ، بين جماهير الأميين من المسلمين وغيرهم .

وما أبعد هذه الكتل الأممية عن الدين ! مهما زعموا لها من إيمان العجائز !! .

نعم قد يكون هناك من ذوى العقول القوية من يحيى عن مناهج الاستقامة ، وأصول الفضائل ، ومن يتمدد على تعاليم الدين ! .

بيّد أن هذا لا يُقلل من قيمة العقل ، ولكنه يبيّن لنا خطورة الشهوات الجامحة ، والأهواء التي قد تصرف المرء عن الحق وهو يعرّفه .

ثم إن محاربة الجهل أن يطغى على العقل ، لا تغنى عن محاربة الفساد أن يتطرق إلى الفواد .

والنّكسةُ التي أصابتنا في تاريخنا الطويل ، جاءت من فساد عقول العامة ومن فساد ضمائر القلة الحاكمة . فإذا أصلحنا العقول بالتعليم الشامل ، صَحَا الشعب ، فلم يبقَ أمام فاسدي الضمائر مُتَسْعٌ للبقاء .

ذلك أن الشعوب المتعلمة قوة ، يجرف تيارها القدى والغثاء :

(١) البقرة آية ٢٦٩ .

﴿فَإِمَّا زِبْدٌ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَإِمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) .

فلنعمل - على عجل - لرفع المستوى العلمي ، فهذه وحدها هي السبيل .

زعموا أن ظريفا ، سمع رجلاً يشكو إلى الله علته ، ولم تكن علته من داء واحد ، فأخذ يسأل الله أن يشفى له بصره المرمود ، وبطنه المعمود ، وقلبه المضطرب وقدمه المخلج و . . . و .

فقال له الظريف : يا أخي بدلاً من أن يرقد فيك هذا كله يأخذك وينخلق غيرك ! هذه الفكاهة التي أداروها حول المريض المسكين ، ذكرتها في نفسي عقب إلقاء عضة طويلة على المصلين في مسجد السيدة زينب ، وبعد نظرة عميقية إلى العلل النفسية والعقلية والبدنية ، التي تعمل عملها في جمهور هذه الأمة .

إن هناك كثيرين من أبناء الجيل الحاضر يعز على الإصلاح حالهم ، لأنهم مصابون من نواح شتى ، ولأن الالتواء الذي حدث في نظرتهم إلى الحياة ، يكاد يصبح فيهم خلية ثانية ، فأنت لا ترفع خرقا حتى يظهر لك فتق جديده .. !

وقد يأيأ قالت امرأة عجوز :

أضحي يمزرق أثوابي ويضربني أبعد شيبى يبغى عندي الأدب؟!
إني أنسح بالاتجاه إلى الناشئة ، والعناء بغارسها ، حتى يتم نماؤها على خير الوجوه ، فإن الأجيال التي مررت على الظلام تستغرب النور :

﴿فَمَا آمَنَ لُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ قَوْمٍ هُوَ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتَنُهُمْ﴾^(٢) .

(١) سورة الرعد آية ١٧ .

(٢) سورة يوونس آية ٨٣ .

نتائج محزنة

يربو عدد المسلمين في العالم ، على عدد اليهود خمسين ضعفًا .

وقد مثل هؤلاء اليهود مع المسلمين ، الرواية التي يمثلها اللص العادى مع صاحب البيت الوادع .

وبدلًا من أن يقاد المجرم إلى التحقيق ، وينتصف منه لصاحب الحق المهضوم ، فإن اللصوصية الدولية أهدرت الحق الواضح ، ومن ورائه أربعين مليون مسلم ، وأزرت الباطل السافر ، ومن حوله عشرة ملايين يهودي ؛ لأن معسكرات السياسة الدولية القائمة على المنافع الخاصة ، استهانت بالكثرة المحققة ، ولم تحرص على كسبها ولم تبال ببنبذها ...

على حين خطبت ود اليهود ، وسترت مخازينهم وزوقت باطلهم وحاربت في صفهم !!!

ولماذا كل ذلك التجني والجحود؟! لأن القلة اليهودية التي تحدثنا - على كثرتنا - تسلّحت بأخر ما وصل إليه العقل الإنساني ، من قوى علمية ومادية ، فأصبحوا بين أحزاب العالم المتحفزة موضع رجاء وخوف ، على حد قول الشاعر :

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفعنا

فاما المسلمون ، فلا تزال أحوالهم العامة ، تجعلهم موضع الأسى من الصديق ،
وموضع الشماتة من العدو !!

ولا ريب أن هذا الظلم الفادح ، الذي أوقعته بنا السياسات الكبرى قد هزنا هزا ، واستيقظنا منه على قارعة أثارت الحفائظ ونبهتنا إلى ما ينبغي عمله لضمان مستقبلنا بعد ضياع حاضرنا .

فلنذكر أن الإسلام يجعل المسلم أهلاً للنصر ، يوم يكون ذلك المسلم أرجح في ميزان الحق ، من عشرة آخرين :

﴿إِن يَكُن مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِن يَكُن مِّنْكُمْ مَائَةً يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١)

والكلمة الأخيرة في الآية هي مفتاح الموقف .

فعندما تكون النفسية الإسلامية والعقلية الإسلامية أعظم اتساعاً ، وأطول باعاً وأسبق في ميدان المعرفة ، وأقدر على إنشاء الحضارة ، وأرسع في حماية المثل العليا ، وعندما تكون الأمية العقلية والاجتماعية في جانب غيرنا ، لا في جانبنا ، وعندما نوصف بالذكاء ويوصف عاداتنا بالغباء ويقال فينا : إننا نفقه ، وفي خصومنا : إنهم لا يفقهون كما تنص الآية الكريمة ...

عندئذ فقط نحل قضيائنا بأيدينا . ونلزم الحياة أن تتبع قواعد العدل ، ثم تعنوا الحياة لنا طوعاً وكرهاً ، لأن البقاء للأصلح حتماً . !!

و قبل أن نصل إلى هذه المرحلة ، لن يقدر المسلم أن يقف أمام عشرة بل سيحدث العكس ، وسينتصب اليهودي أمام عشرة منا .. لا . بل إنه قد وقف - فعلاً - أمام أربعين !!!
لماذا ؟

ولك أن تسأل دهشاً : لم تكون هذه أحوالنا وأوصافنا ، ولم تمضى سنتُ الحياة فينا على هذا النحو القاسى؟ أخلقنا من طينة غير طينة هؤلاء الذين يسودون الدنيا ويقودونها !!!؟ ..

والجواب كلاً . . . فسادة اليوم ، هم عبيد الأمس ، وعبيد اليوم هم سادة الأمس .
والنفس الإنسانية تذوى وتنمو ، وتنكمش وتتند ، على حسب التربة التي تحيى فيها !! ولو أتيحت لشعوب الشرق الفرص التي أتيحت لشعوب الغرب لبلغت الأرض غير الأرض .

ألاست ترى أرجُل البشر تكبر على طبيعتها هنا وهناك؟! حتى إذا ذهبت إلى الصين - حيث يلبس البعض أحذية من حديد - وجدت أقداماً ضامرة شلَّ الحديد نعاءها منذ الطفولة !!

إن لدينا أنظمة ، هي وأحذية الحديد الصينية سواء .. أنظمة تركت وراءها حطاماً من الأجيال الهامة ، التي عاشت عمرها في صراع مع الضرورات المذلة .

(١) الأنفال آية ٦٥ .

ومثل هذا الصراع يموت فيه المنهم موتاً مادياً ، محروماً من العافية والاستقرار ،
ويموت فيه المنتصر موتاً أدبياً .

فأني الترقى والازدهار لمن يقنع فى حياته بنيل ضروراته؟!
أنظمة تجعل الحياة فى المجتمع دون الحياة فى الغابة! .

فإن الطيور تغادر أعشاشها ، سعياً وراء رزقها ، فتغدو خمامصاً ، وتروح بطاناً ، فنتيجة
سعيها تكون مكفولة .

فكيف الحال فى مجتمعات يرها العامل فيها نصباً ، ويقضى حرماناً؟ .
أجل .. قد تكون آجال الحيوانات فى الآجام رهناً بجوع السباع وشبعها ، أفتحسب
الحياة فى بعض ريوغ الشرق أفضل من ذلك؟!

لا تزال هناك ألم تعطى حق الحياة لكتابها أولاً .. ثم لصغارها ما عننت وجههم
لهؤلاء الكبار .

وما استغنى الكبار عن افتراس هؤلاء الصغار ، وإنما الحكم للسيف والنار ، ولمن
يملك النار والسيف .

علة العلل :

البيئة الحرة الكريمة ، هي التي تعيش في حضانتها الصحيحة ، وهي التي ينتظر منها
أن تُنبت النفوس القوية ، والعقول الذكية ، والأجسام الفتية ، ولن تجد جرائم الهاون
المادى والأدبى بقاء لها في مثل هذه البيئة .

ففي الجو الصّحُّو ، والأرض المشمسة ، تموت الديدان ، وتتقرض الأوبئة .
ولكن الاسترقاء السياسي والاقتصادي ، عدو البشرية الأول ، وسرطان الأم
المعذبة .

وفي ليله الطويل ، لا تلمع العقول أشعة المعرفة ، ولا تدرى الطياع معنى الكرامة ،
ولا تشرب النفوس حب الخير .

وأنت إذ تبحث - جاهداً - عن الفرد الذي تعلم في الغرب فاختبر ، أوالذى
انتخب حاكمه ثم جاء دوره هو فحكم! ، إذ تبحث عن هذا الفرد في ظل الاسترقاء
السياسي والاقتصادي ، تجده تائعاً كاسف البال ، يحسب أن وظيفته في الحياة لا تُعذّب
العيش على هامش الفلاحة في أرض ملكته ولم يملكتها ، أو الاحتراف في أشغال
بدائية لا تُدرِّي إلا الكفاف .

ويُسند هذا الهوان تدُّين فاسد ، خرج من الأرض ، ولم ينزل من السماء .
وليته خرج من أرض نقية ، فكان فكراً سليماً ، بل خرج من أرض سبخة ، فكان عبشاً رجيمًا .

هذا التدُّين المكذوب على الله عز وجل ، كانت مهمته أن يخفف من وقع الاستبداد السياسي ، والطغيان الرأسمالي على نفوس المظلومين والمحروميين .

حتى شاع بين الكثيرين أن الدين مُخدّر للشعوب . وليس أبعد عن الصدق من هذه المقالة الجائرة .

على أن الدين - وقد أُصيب بهذه التهمة لأسباب شتى - بحاجة إلى من يمسح عنه عاره ، ويرد إليه اعتباره ، ويصبح في المشرقين والمغاربيين : إن الدين عون الشعوب على نيل حقوقها ، وكسر خصومها وحفظ حرياتها ، وضمان كرامتها .

بلى . . . ونحن موقنون بأنه في الوطن المغلوب على أمره ، المنهوب خيره ، المتهن أهله ، لا عمل للدين - أولاً - إلا رد الحقوق ، ومنع العقوق ، وكسر شوكة المعتدين ، وإذلال كبراء الظالمين .

إن الاستبداد السياسي والافتياض الرأسمالي ، والدين الصناعي ، آفات قديمة في الشرق .

وإنها لسفلة لا قرار لها . . . أن يسخر الإسلام في إبقاء هذه الآفات ! .

إن بعض الجماعات المتدنية تحسب أن قوام الدين هو الإيمان بالغيب ، واليقين في الآخرة ، والعبادات الخاشعة ، والتعاليم الروحية . . وطائفة أخرى من الأحوال الشخصية والأحكام الفردية المحدودة . .

وهي تنشط لخدمة الدين في هذه الدائرة الضيقة ، ولو نجحت في بلوغ أهدافها هذه مع بقاء الديكتاتورية السياسية ، والرأسمالية الاقتصادية ، فإن نجاحها وإنفاقها سوء .

وسيظل الدين تعاليم في ورق ، ورقمًا على الماء ما بقيت الفرعونية الحاكمة ، والقارونية الكاذنة ، تفسد في الأرض ، وتسفك الدماء .

كيف ينظرون إلينا ؟

لئن كانت الفوضى الاقتصادية قد صدعت البناء الاجتماعي للإسلام - كدين عام - وشوهدت حقائقه الأولى في عقول أبنائه وقلوبهم - كعقيدة خاصة - فقد أصابت كذلك الوضع السياسي للمسلمين ، بما جعلهم أعجوبة في العالمين .

وإنك ل تستطيع أن ترى مصداق ذلك ، فيما تقرأ و تسمع كل يوم ، بما يصيّبنا في
محافل العالم الكبرى ! .

وقد كنا نرجو - وخصومنا كثير - أن يدور الصراع بيننا وبينهم على أساس من
الاحترام المتبادل .

أجل . ! ، فقد يكون لك عدو تكرهُك موهبه على تقديره ، وقد يكون لك صديق
تكرهُك تفاهته على تصغيره !! فأين - يا ترى - ينزلنا العالم فيما ينشب بيننا وبين
غيرنا من خلاف ؟ ! !

أنقل هنا كلمة كتبت على هامش السياسة الخارجية بصحيفة يومية ، وفيها الجواب
على هذا السؤال :

إن الشرق الأوسط ما زال موضع ازدراء الأمم الراقية ، رغم غناه بالمورد الأولية الهامة ،
ورغم مركزه الممتاز في عالم التجارة .

وسبب ازدرائه : أن الحكومات في الجزء الأكبر من رقعة الشرق ، لا تهتم بمشروعات
الإصلاح المنتجة ، قدر اهتمامها بالمشروعات التي تعود على الأقطاب بدعاية كبيرة ،
أو شهرة واسعة ، أو نفوذ متسع النطاق .

أما التعليم والرى ، وإنشاء خزانات المياه لوقت القحط ، والانتقال من زراعة المطر
إلى زراعة الآبار ، ومشروعات توليد الكهرباء ، وصناعة الأسمدة ، فإنها ما زالت تدرس
منذ عشرات السنين ، ثم توضع على الرف ، ثم يعاد درسها ونفرض الغبار عنها ، لتعود
مرة أخرى إلى الرف ، وهكذا حتى ينس العالم الشرقي من كل دعاية تداع أو تكتب
في الصحف ، حول مكافحة الجهل والمرض ، والأمية والخلفاء .

ومن أغرب الأمور ، أن للشرق الأوسط مركزاً استراتيجياً ممتازاً .

ففي رقعته تقع أكبر الموانئ والمطارات ، وسُكك الحديد الضرورية لأى دفاع
أو هجوم .

والدول الغربية مقبلة على صراع رهيب ، سيكون لهذه المرافق فيه دور خطير ، فهل
استفدنا من هذا المركز الممتاز ؟ . والجواب على ذلك هو : كلا !

وسبب هذا المركز الضعيف ، أننا مختلفون فيما بيننا على أمور ثانوية ، تاركين الدول
الاستعمارية تستغل مواردنا الاقتصادية ، وقواعدنا الحربية ، وطرق مواصلاتنا ،
ومطاراتنا ، وموانئنا ، بدون أجر أو ثمن معقول !!



بل بدون أي ميزة كبيرة نستفيد بها في معالجة تأخرنا الاقتصادي والاجتماعي الحالى .

والى جوارنا دولة ضعيفة ناشئة ، مؤلفة من مليون ونصف المليون نسمة - هي إسرائيل - فرضت على أسطول بريطانيا أن يخرج من قاعدة حifa ، فأخرجته وفرضت على السلاح الجوى бритانيا أن يخرج من مطار (اللد) وغيره من المطارات الفرعية الأخرى فخرج ، وفرضت على الجيش البرى бритانيا أن يخرج من معسكرات صرفند ، وعكا ، وغزة ، وحifa وغيرها فخرج^(١) .

أما الدولة العربية التي تمثل خمسين مليوناً^(٢) ، فإنها ما زالت متفرقة مختلفة ولها تعجز عن إخراج القوات бритانيا من الحبانية في العراق ، ومن قواuderها في شرق الأردن ، ومن منطقة « فايد » !! .

بل أتعجب من هذا كله أن لنا في بنك بريطانيا نحو ٣٠٠ مليون من الأرصدة ، لا نعرف كيف نستردتها منها ، ونطلبها قطرة بعد قطرة ، كأننا نسألها إحساناً .

أما إسرائيل فقد عقدت مع بريطانيا اتفاقاً ، يسهل لها سبيل الحصول على أرصدتها الإسترلينية ، رغم أن مصر أهم لبريطانيا - بواردها ومركزها الحربي - من إسرائيل !! .

بل هذه هي مسألة « السودان » والإنجليز يعاملوننا فيه معاملة الأجانب ، على حين يفرضون على أشقيائنا سكان الجنوب أن يعاملوا الإنجليز معاملة الوثنى لأصنامه ، ويحرمون عليه امتيازات يبيحونها للإنجليزى ، بل يمنعونه من دخول أماكن يدخلها سادته الإنجليز . !.

ويزرع бритانيون في الجزيرة قطناً ينافسون قطناً به ، ومع ذلك فإننا ما زلنا نرفض الاتجار مع دول كبيرة أخرى ، وما زلنا نعتمد في بيع قطتنا على « لانكشیر » !!
هنا وهناك :

إننى أجزم بأن الأنظمة الاقتصادية السائدة في الغرب ، تعتمد في بقائها على قبول الشعوب لها واطمئنانها إليها .

ولو أنها كانت خالية من المرايا التي تجعلها كذلك لسقطتْ من زمان بعيد ، فإن المرتبة التي وصلت إليها حقوق الإنسان وحرمات الشعوب في هذه البلاد لا تسمح لنظام ما أن يبقى طويلاً ب رغم أنف الذين يعيشون في ظله ، على عكس الحال عندنا .

(١ و ٢) كتب هذا الكلام قبل ثلاثة سنـة .. وتطور الأمور معروـف في الواقع وفي العدد .

فإن الناس كثيراً ما تكون قلوبهم ضد الحكومات ، ولكن أعمالهم معها .

وقد يقال : « الناس قلوبهم مع الحسين وسيوفهم مع أعدائه » !! .

وتلك الحال المنكرة ، هي بعض آثار البطش السياسي الذي سادنا في القرون الوسطى ، ولا تزال بقاياه تترك في نفوس الجماهير الاستكناة ، وتطبع الرأي العام في أغلب أطوار يقظته ، بطابع الإنكار القلبي ، أو الاستنكار السلبي . . . لما يؤله !

ومهما اختلفت المذاهب الاقتصادية المنتشرة في الغرب ، وتنوعت إلى رأسمالية أو اشتراكية ، أو شيوعية ، فإن هناك عاملًا مشتركاً بين هذه المذاهب كلها ، يجعل أصحابها يتمسكون بها ، أو لا يرون بأساساً من الإبقاء عليها ، وهذا العامل مفقود في الأحوال الاقتصادية التي تقوم بيننا .

وستستطيع أن تجد وجهاً من الشبه القريب بين الحياة في روسيا الشيوعية ، والحياة في أمريكا الرأسمالية !! .

على حين تجد الصلة واهية ، أو منفية بين الرأسمالية في أمريكا ، والرأسمالية في الشرق الإسلامي وغير الإسلامي .

ففي أمريكا - كما في روسيا - لا يعرف هذا الركام الغليظ من الجهل والفقر والمرض ، ولا توجد البيئة التي تخلق الرذائل خلقاً ، وترتدى الفضائل طرداً .

وهناك لا تقيم الفوارق الأئمة أىً فاصل بين طبقات الأمة الواحدة .

فإن رئيس الولايات المتحدة ، جاء من طبقة الشعب ، التي جاء منها رئيس جمهوريات الاتحاد السوفييتي . . .

أما في معظم أرجاء العالم العربي والإسلامي فالأمور تجري على النحو الذي أسلفنا .

ولا يجوز أن نقارن بين رأسمالية الشرق ورأسمالية الغرب ، فإن البوْنَ شاسع والمسافة بعيدة .

إن الأحوال الاقتصادية لا تزال في الشرق تحمل طابع عهود الإقطاع ، ولا تزال

المعاملة بين مواطن ومواطن مثله ، كالمعاملة بين الإنجليز والهنود ، أو بين الأمريكان والزنج !!

والإسلام لا يؤيد نظاماً اقتصادياً بعينه ، ولا يخاصل نظاماً اقتصادياً بعينه ، إنما يحارب ويسالم ، ما يكون من النظم ، بحسب ما يتولد منها ، وما ينشأ عنها ، وما يصيب الشعوب من خيرها أو شرها .

إن الذين كالنسيج الخام ، يلبس الناس منه ما يحفظ أجسامهم ، ويزين هيائتهم .

وقد تختلف طرائقهم في كيفية التفصيل وأسباب التزيين ، ولكن لا يجوز على أية حال أن يعرووا عنه .

والأنظمة الاقتصادية العامة ، قد تختلف نظراتها وتقديراتها لمصالح الجماعة .

غير أن ذلك لا يعني أن نطرح الدين جانباً! فما قيمة الإنسانية إذا جحدت ربها وتمردت على خالقها؟!

يجب أن ننتفع بالدين في بناء أمّة تتوافر فيها التربية النفسية العميقه ، والعدالة الاجتماعية الشاملة ، والديمقراطية السياسية المنظمة ، وبذلك وحده يأخذ الشرق الإسلامي طريقه إلى الحياة .

* * *

كلمة الختام

للثقافة جيش غير منظور ، يصل إلى أهدافه المرسومة في سكينة وسلام . وإنى أود أن أسلح القارئ الكريم بهذه الأفكار ، وأملئ ألاً يقف عند حدود المطالعة العابرة . . . ثم الموافقة الباسمة . . .

فإن من الثقافات ما نعده ترفاً عقلياً ، ويكون حسبُ القارئ منه أن يقف هذا الموقف . . . أما إذا تعلق الأمر بحقيقة دين بالإسلام ، ومستقبل أمة زحمت التاريخ وشغلته قدِيماً وحديثاً المسلمين . فالأمر أخطر مما نتصور !

هو عندئذ ضرورة مادية وأدبية ، تجعل من القارئ شريكًا للمؤلف ، وتحشدهما معًا لخدمة قضية مشتركة ، يتقاسمان - جمِيعاً - أعباءها وتبعاتها !!

فلعل الذين يقرأون معى ، يقومون بهذا الحق ، ويبدون شعاع الفكرة ، ويشاركون في إبلاغها الغاية .

إن بعض الواقع في هذا الكتاب قد ارتبطت بظروفها وتاريخها . . .
لكن جوهرها ما زال درساً صالحًا لكل زمان ومكان .

ولقد ظهر بعض المصلحين لصور الخلل التي ذكرنا . . . فكانوا شرّاً من الإقطاع والإقطاعيين . . . وجروا على البلاد الخراب . . . فكل هؤلاء وأولئك كانوا بعيدين عن منهج الإسلام . . .

ولا حل لأوضاعنا الاقتصادية ، وغير الاقتصادية إلا بالعودة إلى منهج الإسلام وحده دون إفراط أو تفريط .

الفهرس

صفحة	الموضوع
٣	تمهيد
٤	مقدمة الطبعة الثانية
١١	مقدمة الطبعة الأولى
١٦	الطبقات المترفة والطبقات البائسة
١٧	سر هذا التقسيم
٢٥	أوضاع معكوسة
٢٦	رأسمالية قديمة
٢٩	الصراع بين الخير والشر
٣٣	القرآن والطبقات المترفة
٤٢	هل للرذائل أسباب اقتصادية؟
٤٤	السرقة
٤٦	الزنا
٤٧	التعطل
٤٩	أمثلة وقاعدة
٥١	مساواة واهمة
٥٥	هل للفضائل أسباب اقتصادية
٥٨	عزة النفس
٦٢	حسن الخلق
٦٣	شرق جديد
٦٥	ليس تفكيراً مادياً
٦٧	الاستعمار الداخلي يمهد للاستعمار الخارجي
٧٢	الدين والاستعمار
٧٤	وقاية
٧٥	الكرامة الفردية

٧٥	الكرامة الاجتماعية
٧٦	الكرامة السياسية
٨٢	أوضاعنا القلقة
٨٢	مقارنات
٨٤	العدالة الاجتماعية في إنجلترا
٨٥	ما حيلة الملك ، والأمر للوزير؟
٨٥	مثل واحد لقاعدة مطردة
٨٧	انتفاع الأمم بالإسلام سر دخولها فيه وبقائه عليه
٨٨	من وراء الحدود
٩٢	بعض ما عندنا!
٩٤	سوء استغلال الدين في حل المشاكل العامة
٩٤	المرض
٩٦	الفقر
١٠٢	ضوابط الملكية الخاصة في الإسلام
١٠٥	دلالة المال المعنوية
١١١	حق الناس في المال
١١٥	الزكاة والضريبة
١١٩	أضرار التطبيق الحرفي لنظام الزكاة
١٢٠	هل تغنى ضريبة الأرض عن زكاتها
١٢٣	الأحوال النامية التي جدت في هذه العصور
١٢٧	الأوضاع الاقتصادية
١٢٩	حقائق مؤسفة
١٣٣	المجتمعات المسخطة لا يزدهر فيها دين
١٣٣	جهد ضائع
١٣٤	ما الدين؟
١٣٥	رجال ورجال
١٣٦	قيمة العقل في الدين

١٣٩	نتائج محزنة
١٤١	علة العلل
١٤٢	كيف ينظرون إلينا؟
١٤٤	هنا وهناك
١٤٧	كلمة الختام